(أَحمِرةٌ وحُمُرات)

_ شوقي مسلماني.

إهداء:

إلى الأمّ التي لم تتعلّم القراءة والكتابة، وعلى الرغم، وفيما كانت تعدّ الطعام أو تطوي "الغسيل"، كانت تدرّس إبنَها وتثني عليه إذا أحسن، وتصوّب له إذا أخطأ.

\\

إهداء أيضاً:

إلى الأب الذي دخل أوّل مرّة إلى مدرسة وكان عمره 16 سنة وتركها بعد 3 أشهر، وعلى الرغم، وبعد سنوات قليلة، كان يقتعد كرسيّاً ويقرأُ من قصّةِ الزير سالم _ أبو ليلى المهلهل _ على حلقات، تباعاً، لجمهور من الأصدقاء في حوش الأمراء الفقراء.

\\

كان ياما كان في قديمِ الزمان إخوانٌ على ألوان زاهية ولهم أعياد مشتركة، وفي يومٍ اصطدمَ نيزك يجرُّ خلفَه مذنّب لهب بكوكبِ الأرض ودمّرَ أغلبَ المراعي واقتلع من جذورِ الجذور أغلب عيون الماء وحرفَ عقولَ الآباء والأبناء ومنها عقول إخواننا الذين تدافعوا على ما تبقّى من سبل الحياة بالمناكب واللبيط والجَلد والعضّ عوض أن يتكاتفوا ويتكافلوا حتى تتعافى الأرض وتعوّضهم ما فاتهم، وأفنوا بعضهم حتى لم يبقَ منهم إلاّ أقلّ القليل وقد صاروا على ألوان باهتة، بائرة، مقطوعة الجنى، ناشفة، يابسة، ميّتة.

\\

. 1

وقالَ بلسانِ الجعجعة وهي لسان الرحى: "لا تهرفْ بما لا تعرف! (والهَرَفُ هو الإطناب في المدح، والمثَل يُضرَب لمن يتعدّى الحدود في مدحِ الشيء قبلَ تمام معرفتِه) إنَّ شرَّ أيّام الديك يومَ تُغسل رجلاه! (ويكون ذلك بعدَ الذبح والتهيئة للطبخ). يا ابن أمِّه إعلمْ أنّ الحوافر هي للّخم وللّكم، والحميرُ تُعرَف بالنهيق، وعندما يُطلِعُنا رجلُ العلِم على نتيجة تجربتِه يُطلِعُنا أيضاً على كيفيّة إجراء تجربتِه لكي يكون بمقدورِنا نحن أن نجريها، وإذا لم نحصل على النتيجة المرجوّة ذاتها

فإنّ نتيجةَ تجربتِه لن نقبلَها كحقيقة". وبربرَ وزمجرَ وجرجرَ وبأْبأَ بفِيه: "لقد أظهرتْ تجاربي أنّ اللبيط عِلم وإنّما هو عِلم قائم لذاتِه لا بذاته"!.

وسمعَ ابنُ أمّه وقال: "تحكّكتِ العقربُ بالأفعى! (وهذا المثل يُضرَب لمن ينازع مَنْ هو أقوى وأقدر)، يا ابن أبيه إنَّ الغزال الذي يقف ساكناً ويتلقّى رصاصةَ الصيّاد التي تقتله لو كان يمتلك عقلاً واعياً لاستفاد منه وعرِف ما يجري ويُحاك له وأنقذَ حياتَه مِنَ الموتِ المحقَّق، إنّ الحوافر هي أيضاً للدّعْس والمعْس والفعْس والهرْس، أنتَ كالمربوط والمرعى خصيب؟!، خسئت، ليس هو عِلم قائم لذاته بل هو عِلمٌ قائم بذاتِه ويُشرِف مِنْ أعلى برج الأسد على اللياقةِ البدنيّة والأمنِ والإستقرار، ما هكذا تُورَدُ يا سعدُ الإبل، وقيل إنّ حماراً تنكّرَ في شبه أسد فلّما رفعَ صوتَه وصاحَ عُرِفتْ حقيقتُه، ويقولُ الزير قهّار المواكب: \ رماني الدهرُ في كلِّ المصائب \ فلا تسمع أخي قولَ الأعادي \ لأنّ الضدّ شوره ليس صائب \ ويشورون عليك في رأيٍ وخيم \ ليسقوكَ أخي كأسَ العواطب \\، وقالتِ امرأةٌ لجارتها: كيف صار الرجل يتزوّج بأربعة ويملك مِنَ الإماء ما يشاء والمرأة لا تتزوّج إلاّ واحداً ولا تستبدّ بمملوك؟، قالتْ: قومُ الأنبياء منهم والخلفاء منهم والقضاة منهم والشُرَط منهم، فحكموا فينا كما شاؤوا وحكموا لأنفسِهم بما أرادوا، آه يا أحمق مِنْ ناطحِ الماء لا تشربِ السمّ اتّكالاً على الترياق".

ردّ عليه ابنُ أبيه حانقاً: "مفتاحُ البطن لقمة ومفتاحُ الشرّ كلمة لا نهقة، ويقولون للحمار: "حا" ويصبر، ويقولون: "هِشْ" ويصبر، فما العجب إذا أمسى لقمةً سائغةً في فم الأسد أو الفهد أو الضبع أو النمِر أو الذئب أو الثعلب أو كلّ ابن آوى أو كلّ ابن عرس؟. إنّي آكل لحمي ولا أدعه لآكل. وقال رجلٌ لمزبّد: إذا استقبلكَ الكلبُ في الليلِ فاقرأْ: يا معشرَ الإنسِ والجنّ إن استطعتم أن تنفذوا مِنْ أقطارِ السماوات والأرض فانفذوا لا تنفذون إلاّ بسلطان"! (وهي الآية 33 مِنْ سورة الرحمن)، قال له مزبّد: الوجه عندي أن تكون معك عصا".

ارتعدتْ فرائصُ ابن أمّه وقال: "يا أختل مِنَ الذئب"، ردّ عليه ابن أبيه وقال: "يا أحقد مِنَ الجمَل". قال ابن أمّه: "أسدٌ اشتدّ عليه الحرّ فدخلَ في بعضِ المغائر يتظلّل، أتاه جرذ ومشى فوق ظهرِه فنظرَه الأسد وضحكَ منه وقال: ليس مِنَ الجرذ خوفي وإنّما كبر عليّ احتقاره لي"! (أي أنّ الهوان على العاقل أشدّ مِنَ الموت)، قال ابنُ أبيه: "وقفتْ بعوضةٌ على قرنِ ثور وحين قالتْ له: أثقلتُ عليك؟، أجاب: لا يهمّ فنزولك مثل رحيلك".

وعلى هذا النحو تهامزا وتلامزا، حتى استشعرَ ابنُ أمِّه إرهاقاً وطلبَ السلامةَ بالسؤال: "ألا يُقال إلى أمّه يلهفُ اللهفان"؟ (والرجلُ يلهفُ إلى أهلِه، واللهفانُ هو المتحسِّر والمكروب)، قالَ ابنُ أبيه: "الإيناسُ قبلَ الإبساس"! (ويقال للناقة قبلَ حلبِها "بس بس"، والناقةُ التي تدرّ على

الإبساس تُسمّى "البسوس")، قالَ ابنُ أمّه لذاتِه: "مَنْ خشي الذئبَ أعدّ كلباً"، وقال لابن أبيه: "هيّا إلى المهراجا فيعثر لنا على العقل الذي ضاعَ بيني وبينك"!.

وطارا إلى وادي النار وجبلِ الكبريت وإذا حميتِ الشمسُ تغدو مثل جهنّم، ونظراه يُعلّق على صدرِ إمرأةٍ حبلى اتّقاءَ ليليث أو الجنيّة ليلى الجناح الأيسر لدجاجة، وانتظرا حتى زفرتْ وشهقتْ وخرجتْ، سجدا له، وعرضا عليه ما أشكل عليهما.

قالَ لهما: "لا يحمل الحقدَ مَنْ تعلو به الرتب \ ولا ينال العُلا مَنْ طبعه الغضب.. \\ مَنْ طلبَ العُلا مِنْ غير كدٍّ \ سيدركها إذا شابَ الغراب.. \\، أليس ديننا يحثّنا إذا أُشكِل علينا أو غُرِّر بنا أن نقصد من فورنا حومةَ الميدان ومَنْ يطعن خصمَه ويريحه مِنْ عمرِه أو يضربه على هامِه ويلقي رأسَه قدّامه تُضرَب له النوبات وتزغرد النساءُ والبنات ويكون دائماً على الحقّ فيما القتيل هو على الباطل والخزي والعار"؟، قال ابنُ أبيه لابنِ أمّه: "مَنْ وضعَ نفسَه مواضع التهمة لا يلومنّ مَنْ أساءَ به الظنّ".

وانطلقا إلى حومةِ الميدان وقالَ ابنُ أمّه: "أنا البطل الرئبال"، وقالَ ابنُ أبيه: "أنا قومُ اللقا عندَ النطاح". واصطدما كأنّهما جبلان وتعاكستْ بينهما ضربتان وسقطا معاً على الأرض _ الثرى _ أربع قطع. قال سيّدهما وقد رأى وسمع: "استراحَ مَنْ لا عقل له"!.

2 .

وقال على الرباب أغنية شاعتْ في أربع أرجاء المعمورة، وكثيراً سُرّ بها الأمير والشيخ والفتى والطفل المقمّط بالسرير: "أنتَ حمار وأنا أخوك، فبأي شريعة تغدر بي"؟. وحكاية هذه الأغنية أنّ أحدَهم وقع في حبّ إحداهنّ وعشقها عشقاً أين منه عشق قيس لليلى أو عشق جميل لبثينة أو عشق كثير لعزّة أو عشق عنترة لعبلة أو عشق روميو لجوليات، وإذا آباؤنا العذريّون قد صرّحوا بما يتلاطم في أرواحهم فإنّ أخانا آثرَ الكتمان، وما انقضى وقتٌ حتى غلبَ عليه ما هو فيه مِنِ انحباسٍ وتيه وصارَ عقلُه يلعب به وعيناه تغشّانه حتى مرّة وقعتْ عينه على مائدة وجرى نحوها ليمسك بنيانه، وعندما اقتربَ أكثر أصبحت لا تعدو أن تكون حبيبته منحنية يُلامس كفّاها الأرضَ بوضعيّةٍ رياضيّة. أصابَه ذعرٌ، وخاف أن يأتي عليها، وقالَ لذاتِه بصوتٍ مسموعٍ قبلَ أن يفرّ هارباً: "واحسبيني غولاً، فهل سمعتِ يا روحي يوماً أنّ غولاً أكلَ غولتَه"؟. واستبدّ به العطش، في مرّة، ورأى جرناً طافحاً متألّقاً في عينِ الشمس، وأُهرع صوبه ووضع بوزَه عنده وفي نيّته أن يفرغه في جوفه، ورأى وجهَه معكوساً في الماء، وتهيّأ له أنّ وجهَه هو ذاته وجهها، وظنَّها تستحمّ، وقد غطستْ خجلاً عندما هي أيضاً رأته، واندهشتْ لمّا رأتْه ينظر إليها مندهشاً، وساءَه أن تظنّ

به الظنون، كأن يكون يُبصبِص عليها أو مُصاب بداء البصبصَة. ضرب رأسه بكفّيه وأسرع مبتعداً.

ثمّ وهو على هذا النحو أصابَه نحول مهول، وبرزتْ عظامُ جسمه كالمصاب بداء النحافة _ أنيروكسيا. ونهضتْ له روحُه تحدّثه، وهي أخيراً مثله تكاد تلفظ أنفاسَها الأخيرة وقالت: "يا حبيبي ويا نور عينيّ إذا أنت تريد أن تنفق فإلى أين سأذهب أنا؟ ماذا هو ذنبي إذا أنتَ تريد أن تنفق؟ إرحمْ حالك وارحمني! لماذا لا تطلعها على شوقك وهيامك؟ فإذا قبلتْ قلْ بلغتَ مرادَك وإذا رفضتْ قلِ السلام على غيرها"!.

وقطعَ حديثها بما تبقّى فيه مِنْ حياة وقال: "لا أظنُّكِ تعتقدين أنّ الشمسَ هي من اكتشافاتكِ، فماذا لو أنّي صارحتُها وهي أنكرَتْني وأطلعتْ صديقةً مِنْ باب التباهي أنّها حبّوبة ومحبوبة ومرغوبة ومطلوبة، أو مِنْ باب المراسلة المُشفَّرة ليعلم آخَر هي تحبّه أنّ حديدان ليس وحده في الميدان ولكي يفوز بها عليه أن يُسرِع إليها، أو مِنْ بابِ الثرثرة لا أكثر ولا أقلّ وبلغَ تصريحُها حاسداً استغلّها فرصةً واستعجل مِنْ بيت إلى بيت ومِنْ حقلٍ إلى حقل ومِن بركة ماء إلى بركة ماء ومن إسطبل إلى إسطبل متقوّلاً إنّها صدّتْني ومنعتْ عنّي كأنّي أشهق وأزفر عوض أن أزفر وأشهق، أو كأنّي ذيلي عصاص وليس هو حبل طويل وإنّ يديَّ وقدميَّ حزوز جبنة "لافاش كي ري" – البقرة الضاحكة

– وليست حوافر، وبأسرع ما تلتهمُ النارُ مِنَ الهشيم سأغدو على كلِّ شفة ولسان، وستقولُ العجائز: "ويلك، مَن غشّنا ليس منّا". وعندما أمشي في الأزقّة سيهزأ بي الأولاد قرعاً على التنك صائحين: "الجاسوسْ أَهُوْ أَهُوْ، الجاسوسْ أَهُوْ أَهُوْ". وإذّاك كم سألعنكِ وكم سألعن الداية التي سحبتْ رأسي وسأتمنّى من أعمق أعماق قلبي لو تظهر لي الضبع أمّ عامر وتزلطْني مثلما يتمنّى المنفيّون عن أهلهم وأحبّتهم وأصدقائهم ومجتمعاتهم وأوطانهم لو تنشقّ الارض وتبتلع القومَ الظالمين".

وفيما روحُه تتّهمه بالجنون وهو يتّهمها بالحمرنة، وهي تترجّاه وهو يقطّب جبينَه، وهي تكاد تفرّ من قلبه وهو يكاد يفرّ من رأسه ومنها، وإذْ حبيبته مقبلة كأنّها ترقص على "الدقّه ونصّ"، وتحاذيه مُضيّقةً عليه، ويلمسُ بطنُها العامرُ بطنَه الضامرَ، وتقف مُدْبِرةً، ومباشرةً، تحت أنفه، ويفرك عينيه، ويتشمّم عطورَها الثمينة، ويقول: إنّها هي، سالبة عقلي، بجسمِها المنطاد وساقيها ويديها الخيطان وكفّيها وقدميها الكَشَاتْبين". وقالَ لروحِه بقوّة حياة وارفة نهضتْ فجأة فيه: "انظري، إنّها تموت بي"!. وعوض أن يتقدّم ما أسرع أن يتأخّر. قالت: "ماذا دهاك؟! هي أمامك على طبق من فضّة أو ذهب! لماذا تتراجع وتتركها وحيدة"؟!. أشارَ لها أن تكفّ عن الكلام، وأوضحَ أنّه سيلفّ وسيدور، وهل حضارة الإنسان من غير اللفّ والدوران؟. وهو سيسأل

أهلَه أن يسألوا أهلَها بعد لفٍّ ودوران، وأكّد أنّهم سيلفّون وسيدورون وسيقولون أنّه ولا مثله بالعمل مِنَ الفجر إلى النجر، ويحمل على ظهرِهِ ما ينوء به جَمَل، وأهلُها سيلفّون وسيدورون وسيقولون أيضاً أنّ ابنتهم آية وقولوا لها: "حا" ستمشي وقولوا لها: "هشْ" ستقف. وأخيراً سيعطونني وسيباركون لي، وستكون أفراح وليال ملاح، وسيدكّ الخلاّنُ الأرضَ بأقدامهم الثابتة، وسيلوّحون بمحارمِهم، ولسانُ حالهم يقول وأعمار الكرام تطول: "نحن هنا وسنظلّ هنا". وسأطلب ألاّ تكون قرقعة أو فرقعة لئلا تنزعج ذبابة أو بعوضة، وأنا أريد فرَحاً لا ترَحاً، وهم حتماً سيلبّون طلباتي".

وعلى هذا النحو كان يثرثر وروحُه تسمع وتنظر وتلطم، ومِنْ لا مكان برزَ إلى الميدان جحش يُدعى جحشان يعدو على خمس سيقان، وعيناه على فاتنةِ الألباب التي هي في ذهاب وإياب تنتظر حتى يَفرغ حمار الحمير مِنْ حوارِ الطرشان مع روحه. وقفز، وزقزقَ العصفور، وفاضتِ القدور، واستيقظَ نائمٌ من بين النيام وتوعّدَ البرَّ بمزيدٍ مِنَ الزفيرِ والشهيق والبعر بعد تسعة أشهر بالكمال والتمام.

وفي اليوم التالي تصادفا عند بعضِ الماء، وقالَ لجحشان وهو يبكي: "أنتَ حمار وأنا أخوك، فكيف طاوعَك ضميرُك لتغدر بي، أريد أن أنتحر، اعطني خنجرك المسموم"؟. وسمعَ رعاةٌ وتسامروا بما سمعوا في العشيّات، ونقل عنهم ركبانٌ الى أبعدِ البلدان، وقامَ شاعرٌ نظّام

وشالَ وحطَّ وأنقص وأضاف، وحملَ ما صنعه إلى ملجِّن عملَ مثله، ومعاً استعرضا المطربين والمطربات والمغنّين والمغنّيات والمؤدّين والمؤدّيات، ورسى العقْدُ أخيراً على غنّوجة فرعونية العينين، تفاحيّة الخدّين، عبليّة الزندين، عملتْ فيديو، وتشخلعتْ، وقفزتْ عالياً، وعملتْ حركات سويديّة، وحقّقَ الفيديو نجاحاً، وأكثر ما انبهر به قادة ورؤساء وزعماء وملوك وأكاسرة وقياصرة قصّوا الألسن، صلموا الآذان، سملوا العيون، جدعوا الأنوف، قطعوا الأيدي والأرجل مِنْ خلاف، وأُمهِلوا ولكنْ لم يُهمَلوا قطّ.

. 3

وقالَ مبارَك بالقهقهة، وهي لسانُ القرد، أنّ النهيق منطِقُ الحمار، وقلّما يَعرِف المُطفأُ أكثر ممّا عرفَ على أبويه اللذين لم يعرفا أكثر ممّا عرفا على أبويهما، تسلسلاً حتى رأس ناحية البراري والإسطبلات وعموم آذانِ ناطحاتِ السحاب وكلّ المعالف. تعلّمْ يا مبروك أنّ اللّون الأبيض لونُه أحمر ياقوت"!. وشخرَ مبروك ونخر وسبَّ الشمسَ والقمر وزمجر وقال: "لا يستقيم الظلُّ والعودُ أعوج. إنّ اللّون الأبيض لونه أخضر زمرّد"!. ونعقا على بعضيهما أو نهقا أو زعقا. وسمعَ أخوهُما برَكة وأهرعَ صوبهما وضحك منهما حتى انقلب على ظهرِه،

ومثلما يُقال "ذهبَ الحمارُ يطلبُ قرنين عادَ مصلومَ الأذنين" قال وهو لا يزال في ما هو فيه: "لا يا مبروك ولا يا مبارَك، لا أحمر ياقوت ولا أخضر زمرّد بل لونه أزرق فيروز". واستفظعَ مبارَك ومبروك أن يكون أخوهما بَرَكة يرتع في هذا المقدار من التيه، وقالَ له مبارَك بعدما لبطَ بالطول والعرض: "تدور على الباغي الدوائر. فاللّون الأبيض لونه أحمر ياقوت". وقالَ مبروك لبرَكة والرعب يكتظّ في عينيه: "لا يا برَكة، لا أحمر ياقوت ولا هو أزرق فيروز، بل أخضر زمرّد وليس غير أخضر زمرّد".

واختلطَ الحابل بالنابل عواءً ونباحاً، وكان في الجوار ظربّان! (وهو دويّبة فوق جرو الكلب منتنُ الريح كثير الفسوِ، قالوا إنّه يأتي جحرَ الضبّ فيفسو فيه فيخرج الضبُّ فيأكله) وتوسَّطَ الجماعة وفسا، ولذا يُقال: "فسا بينهم الظربّان". ولئلاّ ينفقوا من الرائحة المثيرة أدبروا وسابقوا الريح هرباً في كلّ اتّجاه. وفي اليوم التالي وهم عند جرن ماء قالَ برَكة كأنّما يعتذِر عن حديثِ الأمس: إنّ "أعْقَل الناس أعذرُهم للناس". وقالَ مبارَك موافقاً: "مَنْ طلبَ أخاً بلا عيب بقي بلا أخ". وقالَ مبروك: "شُخْبٌ في الإناء وشُخْبٌ في الأرض! (وهو مثل يُضرَب للرجل حين يصيب في فعلِه أو منطقِه مرّة ويُخطئ مرّة، وأصل المثل في الحالِب الذي تارةً يُخطئ فيحلب في الأرض وتارةً يصيب فيحلب في الإناء. والشُخْبُ هو الحليب يخرج مِنَ الضرع). وقيل: بكلّ وادٍ أثرٌ

مِنْ ثعلبة"! (وهذا مثَلٌ قالَه رجل مِنْ بني ثعلبة رأى في قومِه ما يسوؤه فانتقل إلى غيرهم فرأى منهم مثل ذلك). وحثَّهما أخوهما برَكة أخيراً على موقف موحَّد مِنَ اللون الأبيض.

قالَ مبارَك هامِساً لذات ذاتِه: "تلبَّدي تَصِيدي"! (والتلبّد هو اللّصوق بالأرض لختْلِ الصيد). وقال لأخويه: "موقفنا هو أنّ لون اللون الأبيض أسود بلون الأُوبال الأسود". وارتعدتْ مفاصلُ مبروك وقالَ: "موقفُنا إنّ لون اللون الأبيض هو أصفر بلونِ زهرِ الصبّار وكلّ كلام آخَر لا يكون له اعتبار حتى يشيب طير الغراب". ونظرَ إلى أخيه برَكة مقرّباً منه بوزَه وقال له: ويلك يا أزرق العين"! (ويُقال: يا أزرق العين للعدوّ، ويقولون في معناه: هو أسود الكبد) وضربَ الأرضَ بقدمِه وقال لأخيه مبارَك: "إنّ لون اللون الأبيض أصفر بلونِ زهرِ الصبّار وهذا آخر كلام عندي". وقيل انزلقَ بعر.

وقالَ برَكة: "وخذوا لبيطاً إذا شبع اللئيم، وإذا هو من عبقر قولوا هو حمار، وإنّ الحمار لن يكفّ عن التخاطب مع غيرِه باللغة التي لا يفقهها أحد غيره. إنّ لون اللون الأبيض ذهبي". قاطعه مبارق ومبروك باللطم وحثّاه على الإهتداء. ومَنْ كان نعجة أكلَه الذئبُ، ونهشتِ الحيّةُ ولدغتِ العقرب، ومبارك ينعق نعوقَ الغراب ومبروك يهدر هديرَ الجمل وبرَكة يعزف عزيفَ الجنّ، ولمحوا أسداً على صهوة الريح ففرّوا من الموت المحتّم.

وفي اليوم الثالث كانوا إلى مأدبة، وقالَ مبارك: "لكلِّ صارمٍ نبوة"! (ونبا السيفُ: تجافى عن الضربة) و"لكلّ جوادٍ كبوة"! (وكبا الحصانُ: عثر) و"لكلّ عالِمٍ هفوة"! (وهفوةُ العالِم: زلّتُه). والتقاه برَكة قائلاً: "إنّ النهيق مُنتَج طبيعيّ وطبعه المرح، وأمّا الزعيق فمُنتَج صناعي مثله مثل أزيز الرصاص وجعير الصواريخ وغيرهما مِنْ لغاتِ اللصوصيّةِ والكراهيّة". وهزَّ بركة رأسَه موافقاً وقال: "إذا تكاثرتِ الحوافرُ تكاثر التنافر وحوادثُ المرور". واتّفقوا أنَّ الكلب الحيّ هو خير مِنَ الأسد الميْت، وأنّ المهاراجا أو الخواجا أو الباشا أو الكونت هو نار على علَم! (والعلَم هو الجبل المرتفع) وأنَّ صاحبَ الحاجة أعمى وأنّ العبدَ مطيّة الإقطاعي وأنَّ الكومبرادور ذيل الرأسمالي.

وطاروا إلى كبيرِهم لا يلوون على شيء، ودخلوا عليه وحدّثوه. قالَ لهم: "أعقلْ لسانَكَ إلاّ في أربعة: حقّ توضحه وباطل تدحضه ونعمة تشكرها وحكمة تظهرها". الرجالُ أربعة: "رجلٌ يدري ويدري أنّه يدري فذلك عالِمٌ فاتبعوه، ورجلٌ يدري ولا يدري أنّه يدري فذلك نائمٌ فأيقظوه، ورجلٌ لا يدري ويدري أنّه لا يدري فذلك مسترشدٌ فعلّموه، ورجلٌ لا يدري ولا يدري أنّه لا يدري فذلك جاهلٌ فارفضوه". ضاقَ صدري، ألسنا لا نزال على العهد إذا أُشكِل علينا أو غُرِّر بنا نحتكم من فورنا إلى ميدان الطعان والمنتصِر يكون قد نطق بأصدق المقال والمهزوم يكون قد نطق بالباطل والمحال"؟.

وقال الراوي، ولا يطيب الكلام يا سادة يا كرام إلاّ بحضرة ذوي الأفهام، إنّ أبا العيناء سأل رجلاً عن دربِ الحمير؟. قال الرجل: "ادخلْ أيّ دربٍ شئت". يكذب عليكم مَنْ يقول لكم إنّ الحضارة هي مُنتَجُ العنف، ولو كان ذلك صحيحاً لرأيتم أنّ بني حمار، وهم أيديهم حوافر، قد سبقوا إلى القمر، وربّما هم مستوطنون فيه الآن ويغتذون على الضوء بالشوكة لا بالملعقة".

وانطلقَ الأخوة الأعداء إلى ميدان القتال، وتقاتلوا بالسيوف الحدب والرماح المكعّبة، وكان أخوهم مبارَك أخْيَر بمواقع الطعن وأرشق، وأتتْ طعنةٌ منه في صدرِ أخيه مبروك، ثمّ فرغ لأخيه برَكة، وصارَ بينهما طعن يقصف الأعمار وشخصتْ لهما الأبصار وتعاكستْ بينهما ضربتان، وإذْ كلّ منهما يبري رقبةَ الآخر كما يبري الكاتبُ القلم.

وعلمَ كبيرُهم وزفرَ وشهق وقالَ كأنّه على خشبة مسرح: "دواءُ الدهر الصبرُ عليه. ماذا عندي في هذه الفانية؟. ما لي ثاغية ولا راغية"! (والثاغية هي النعجة، والراغية هي الناقة) ولو اتّجرتُ بالأكفان ما ماتَ أحد". وقُبَيل إسدال الستارة انهارَ كلّه على الأرض، وأفردَ يداً والدموع سيول جارفة من عينيه وقال: "ليتَ أحد منهم نجا لأعلم بنجاته ما حقّاً لون اللّون الأبيض"؟!.

4 .

.. وصباحاً باكراً وجده أبو حطّاب نافقاً، وجاء بحبل غليظ وجرّه خلف ثور وسط سحابة ذباب ومذنّب غبار، وإلى أين؟! إلى القمامة. وعصراً كانت أتان تمعط العشب عند بركة ماء، وشاهدتها أوزّتان تقصدان بركة الماء ذاتها، وحطّتا إلى جوارها، وقالت الأولى لها بالقيق والقاق: "هل ينفق بعلك وتعملين أنّك لم تعلمي؟ أخلاق الحمير حقّاً هي أخلاق حمير". وزعقت الثانية وقالت: "كيك كاك، حتى لم تمشي في جنازته ولم تلوّحي له ولو بمحرمة ذيلك"!. وهجمتا عليها تصفعانها. ونهقت عليهما وقالت لهما بالزفير والشهيق: "وأنتما ما شأنكما؟ هل كان اللعين بعلاً لكما أم كان بعلي؟ لطالما شتموه وشتموني وضربوه وضربوني، وكم نصحته أن نتمرّد ونفرّ إلى أي مكان آخر، وكان يتشبّث بالصبر، وحتى في آخر أيّامه انكسر سيفه، انصرِفا قبل أن أحقد عليكما وألبطكما وأنعف ريشكما وأزلّطكما وتصيران نهباً للقطط والجرذان".

وفي اليوم الثاني، وفيما أحد أبناء النافق، وهو كرّ، يركض على غير هدى، ويقف على حين غرّة، ويرفس الهواء كأنّه يلعب أو يتدرّب، اقترب منه إعلامي وسأله إذا كان حقّاً إبناً للنافق؟ ولماذا لا يبدو عليه أي أثر للحزن أو للأسف؟. قال: "أنا إبنه، وأنت تريد منّا إنّنا آنيّة وانكسرتْ ولا عواطف ولا مشاعر ولا أحاسيس، انظرْ ماذا ورثتُ عنه:

كان كرّاً وها أنا كرّ، صار جحشاً وسأصير جحشاً، وإذا امتدّ عمري سأصير مثله حماراً، وسيقولون لي "حا" وسيقولون لي "هشّ"!. هل أنت صرّفتَ أيّها المنافق شؤونك كلّها ولم يبق إلاّ أن تصرِّف شؤوني؟ انصرفْ قبل أن ألبطك على أمّ نافوخك".

وفي اليوم الثالث، وبينما كانت مجموعة عند البيادر تنتظر دورها لتحمل غلال القمح والشعير والتبن إلى الأهراءات والتبّانات وإذْ أخ لهم ينضمّ إليهم ويقول بصوت فيه أسى: "وأنا ما عندي شكّ أنّ الكائنات كلّها في عجن ولتّ ولا شغل أو عمل إلاّ أن تدسّ أنوفها أو خراطيمها أو مناقيرها في كلّ شاردة وواردة من شؤوننا، حيث قبل قليل، وبينما كنتُ أحثّ الخطى لأنضمّ إلى مجلسكم الموقّر استوقفني قريباً من الماء فيل قولوا هو شاحنة "سكستينْ وِيلْ" _ 16 دولاباً _ وقال لي بالصراخ والعويل: "يا أحطّ الكائنات، كيف واحد منكم ينفق ولا تمشون في جنازته؟ أليس في عروقكم دمّ؟ قلْ أيّها الشرّير لقومك الأشرار مثلك إنّ العيون حمراء وإنّ الأعصاب تالفة، وإذا لم تتّبعوا الصراط ولم تغادروا الضلال لنطردنّكم من المملكة مثلما طرد أفلاطون من جمهوريّته قوماً شعراء". ودفعني بخرطومه وطيّرني أمتاراً، وكان غراب عند غصن يابس من شجرة يرى ويسمع، وذاته أضرم النيران قبل يومين في بيت فقير كان يؤويه، قال لي بالنعيق: "قاق قاق، يا جرثومة الشقاق والنفاق، قل لقومك الفسّاق ما قال لك سيّدنا الفيل وإلاّ فقأت

عينيك وعيون أهلك وشرّدتكم في الآفاق. واعلمْ أيّها الأصفق، الأحمق، الأخرق، أن كلام الفيل هو فيل الكلام".

وقال واحد يدعى نهّاق فيما الشرر يتطاير من عينيه على غير عادته وعادة بني جنسه: "وها أنتم سمعتم ما جرى مع حبيبنا أبي صابر فاسمعوا ماذا جرى معي: بالأمس وبعد غياب الشمس وأنا في الإسطبل انسابَ خفّاشان ضئيلان من طاقة قريبة في السقف وخدّراني تخديراً موضعياً وأحدثا جرحين بي وتداولا على اللعق من دمّي، وأنا لم أزعجهما بحركة، مصغياً لما يسقط من لسانيهما بحقّنا. وقال أحدهما للآخر: "هل بلغكَ عملُ الحمير مع حمار نفق منهم"؟. وقال له اللعين الثاني فيما دمّي يقطر من فيه: "ومَن في الدنيا لم يبلغه خبر عملهم الشرّير؟ لأكرعنّ من دمهم ما حييت". وبعدما انتفخا.. طارا، وأنا اليومَ مسمرتُ حوافري، وأحلف إذا رجعا سأدعسهما وأفعسهما وأهرسهما وأمعسهما. يلعقان دمّي ويشتمان أبي وأمّي؟ لماذا يجب أن أسأل عن النافق منّا؟ هل لأنّه رآني أحمل مرّة جبلاً على ظهري ولم يتقدّم ليحمل عنّي بحصة؟ هل لأنّه رآني مربوطاً وابن سيّدي يتربّص بي ومرّ وهو عوض أن يقف على خاطري ويحميني عمل أنّه لا يسمع ولا يرى؟ أم لأنّه لم يكن يدافعني أو يزاحمني أو ينافسني على الأتن والتبن؟.

وقال الراوي إنّ عقاباً من نسور الجيف كان يقف عند كتف جبل حين أنبأه الهواءُ الساخن بأمر فطيسة، فأفرد لها جناحيه وطار علّه يتلقّط

منها ما يسدّ جوعه، ومن عليائه رأى أبا حطّاب يجرّ خلفه ثوراً يجرّ خلفه حماراً نافقاً وخلفه قطيع ذباب وسحابة غبار، ورأى أبا حطّاب يرميه وسط القمامة ويقدح عود كبريت ويضرم النيران التي هبرجت ولم تنطفئ إلاّ بعدما أكلت كلّ شيء ولم تخلّف إلاّ الرماد. طار نعل عقله، ظلّ يلفّ ويدور في السموات العُلى قهراً حتى لحق به أهله، ولفّوا وداروا معه، وأقنعوه بالعودة إلى ديرته لئلاّ تخور قواه ويسقط ويفكّ رقبته. ورجع معهم أخيراً إلى ديرته وهو يلعن قلّة وفاء بني حمار الذين لم يفز منهم للأسف الشديد الذي ما عليه مزيد ولا حتى بفرمة لحم واحدة.

5.

.. واستيقظَ مذعوراً، وقامَ إلى الماء وشربَ أربع ليترات وأشعلَ سيجارة، وفكّرَ أنّ هذا المنام يعاوده بلا انقطاع: هو والي الناحية يصير ملكاً على كلّ النواحي، وتعزف مزامير وطبول وصنوج، ثمّ تعبر جنازة يجري خلفها طابور مِنْ حمير الزرَد بالخطوة السريعة. تساءل: "هل سأصير الملك في يوم وسأنفق في اليوم التالي"؟!. وحاولَ أن ينسى الفرع الثاني من منامه الغريب ولكن من دون أي فائدة، فقد سبق وقال علماءُ النفس كلمتهم إنّ المنام هو كلٌّ واحد. وقرّر أخيراً أن يستدعي

الوجهاء، فالأجدادُ قالوا أنّ العاقلَ هو مَن يجمع إلى عقله عقول الآخرين، ولم يشأ في آن أن يؤجّل عملَ اليوم إلى الغد، وقامَ إلى النافذة المطلّة على المحلّة الغارقة بعدُ في الظلام، وزعقَ، وقولوا نهقَ، وقال: "انهضوا مِنْ سباتِكم وإليّ أيّها الوجهاء استعجلوا ببساط ريح أو بطائرة جامبو". وما اشتعل ضوء. ونرفزَ، وزعق، حتى قامتِ الريح ونتّفتْ جنوناً أوراقَ الشجر، ولسان الحال يقول وأعمار أبناء الأوادم تطول: "ألا تشعر؟! أليس فيك خجل؟! ألا تقول إنّ المحلّة فيها أطفال ونساء وشيوخ ومرضى نيام"؟!. واستمرَّ ينهق، وأقبلتْ مستطلعةً غيومٌ متّشحة بالسواد وهي تقول: "ماذا أصابكم يا أهل هذه المحلّة"؟. وفتَحَ حنفيّةَ النهيق على الآخر، واستيقظَ مرعوباً بركانٌ، وزفرَ مِنْ فوّهتِه وفتحاتِه الدخانَ إنذاراً، ولمّا لم يصمت انفجرَ وطيّرَ الصخورَ والنيران، ولم يهدأ إلاّ بعدما انتحبتِ السماء واندفعتِ السيول وجرفتْ في طريقِها إلى البحر كلّ بيت لم ينهض على الصخر.

واستيقظ الوجهاء أخيراً، ومِنْ دون أن يغسلوا وجوهَهم أو ينشّوا الذبابَ المتراكِم عليهم ركضوا ودخلوا عليه متدافعين، واصطفّوا أمامه كيفما اتّفق على عادتهم التي لا شفاء منها، وكان بينهم مسنّ تعمّدَ أن يقفَ في آخر الصفوف وهو يلتهم سرّاً ورقة ملفوف. ونظر إليهم الوالي وهم أخفضوا رؤوسَهم حتى كادت تلامس الأرض، وزفر زفرةً ثمّ شهق شهقة، وقصَّ عليهم، وسألَ إذا فيهم مَن له عِلم بالغد؟. ولم يُجب أحد.

وإنجاداً للحال رفعَ المسنّ إيّاه يداً وقال: "أنا". وطلبَ منه الوالي أن يتقدّم، وقالَ له مشجّعاً: "إسمعْ أيّها المسنّ: سأهبُك خيشةَ تبن وكيسَ شعير إذا أجدتَ التفسير، والآن إنهقْ بما عندك". قالَ المسنّ: "هبْني الأمان، فقد يزلّ يا مولاي لساني، وقد تكافئني بلبطة، وأنا مسنّ لا أحتمل بعدُ". ووهبَه الأمانَ، وزادَ له في المكافأة صاعَ قمحٍ ومخلاةَ ذرة بيضاء وحذاءً جديداً.

قالَ المسنّ: "وفي المنام فجوات، وسنتعامل معها بالردم: كانت أنغام المزامير والطبول والصنوج فرِحة أم كانت ترِحة"؟. واعتقدَ الوالي أنّ المسنّ يتجرّأ بمثل هذا السؤال، فكيف هو الوالي وسيصير الملك وتجروء آلة وتعزف بحضرته غير أنغام الفرَح؟!. ولكن شاءَ أن يصبر، وقالَ للمسنّ: "كانت فرِحة". وشهقَ المسنّ من هول المفاجأة، وظهرَ كَدَرٌ شديد على وجهِه، ثمّ سأل وهو هذه حاله: "هل كان التاج والعرش والصولجان مِن الذهب وأخشاب الأبنوس والأحجار الكريمة والماس أم مِنَ القشّ مثل قشّ الشعير وغيرِه مِنَ النجيليّات"؟. واحمرّتْ عينا الوالي، وطقطقتْ أسنانُه، فلا بدّ أن هذا المسنّ مخبول يستعجل حتفَه ويحفر قبرَه بظلفِه، كيف تاج وعرش وصولجان مِنَ قشّ؟! تجاوزَ المسنّ الملعون عتبةَ المحرَّم ولا بدّ للقائمين أن يهبّوا للدفاع عن حقوقِ آلهتِهم، ونبحَه تلك النبحة: "عدمتْكَ أمُّك، قشٌّ مثل قشّ الشعير وغيرِه مِنَ النجيليّات؟! اعترف أيّها الجاسوس، أنت لحساب مَنْ تعمل؟

انطقْ، أم هو الملفوف صار يذهب حتّى بعقل الفيلسوف، وكيف والعقل هو عقل مأفون مثلك؟ لماذا أنت صامت؟ هل بلعتَ لسانَك"؟. وشاءَ أن يسحبَ الأمانَ الذي وهبَه له وأن يلبطَه لبطة قولوا هي نيزك، ولكنّه تراجعَ في آخر لحظة مُفسِحاً لمزيد من الصبر ومتذرّعاً أنّه سيمدّ حبلَ الفساد للطاغي كي تزداد ذنوبُه ويأخذه بها مجتمِعةً أَخْذَ القادِرِ الجبّار، وتابعَ قائلاً مصطنِعاً أنّه ممسك بزمام الأمور ولا يفوته شيء: "لا مِنْ قشّ الشعير ولا مِنْ غيرِه من النجيليّات بل مِنَ الذهب الإبريز وخشب الأبنوس والماس الذي تبهر أنوارُه أنوارَ الشمس". قالَ المسنّ لذاته وهو يرتعِد فرَقاً: "ويلي، أنا بواد وهو بواد والفقرُ والجهلُ والمرضُ يمسكون بأعناقِ العباد". وسألَ إذا الجنازة كانت لحيّ أم لميّت؟!. وكان الوالي يتوقّع شططاً من مسنّ لا يبدو أنّ له مرسى، ولكنْ أن يبلغَ به الشَططُ هذا المقدار ويسأل إذا كانت الجنازة لحي أم لميْت فلا طاقة فيه بعدُ عليه، وانتفخَ حتى صار منطاداً، وانفجرَ، وقولوا هو قنبلة وانفجرتْ، وجعر قائلاً: "جنازة لحيّ؟! واللهِ تاللهِ سأشنقك، سأحرّقك، سأطعمك للتماسيح، كيف جنازة لحيّ؟! متْ أيّها المجرم بغيظك واعلمْ أنَّ الجنازة، ويا لفرحتي، كانت لميْت"!.

وسمعَ المسنُّ أنّ الجنازة كانت لميْت. ارتعشتْ يداه كعمل القصبات الرقيقات في ريح، وأخذتْه من بعدُ صاعقة ودارتْ عيناه في محجريهما مثل مغزلَين وتهاوى كلّه على الأرض. والوالي ينظر ولا يفهم. ونظرَ

أخيراً إلى الوجهاء ورآهم جميعاً وقوفاً نياماً. وانصرفَ عنهم يائساً، بعدما لاحظَ أنّ حركة في بطن المسنّ، فأمرَ الحاجبَ أن يهرعَ بوعاء ماء وقبضةِ غذاء. وفهمَ الحاجب وعملَ الواجب وألقى الماء على رأسِ المسنّ حتى إذا استيقظَ حشرَ له في فمِه قبضةَ الغذاء فقضمَها ولعقَ بلسانِه قطرات ماء كانت لا تزال تنزلق مِنْ رأسِه ونهضَ وقالَ للوالي الذي ظهرَ فجأةً أنّه على استعداد للإستماع بكلّ رحابة صدر: "موسيقى فرَح لتَرَح؟ الترِح للترَح والفرِح للفرَح أمّا فرَح لترَح وترَح لفرَح فمن العلامات، أيّ فرَح ونحن أبداً في ترَح وهذا يقول لنا "هشّ" وذاك يقول لنا "حا"؟! كيف يكون التاج والعرش والصولجان مِنَ المعدن والخشب والحجارة؟! هل يقتات جنسنا المعادن والأخشاب والحجارة؟ ولو كانتْ قشّاً كنتَ أنت التهمتَ منها ونحن أحبابك كنّا التهمنا منها معك، أم السابقون كانوا أعقل حين جَعلوا آلهتَهم مِنَ التمر وعندما ضربتْهم مجاعةٌ هبّتِ الآلهةُ التمريّة وقدّمتْ أبدانَها قرابين لهم؟ كيف لا تعلم أيّها الوالي أنّ الميْت عن خلف عزيز منيع هو حيّ وأنّ الميْت عن خلف خانع ذليل هو ميْت؟! تأويل رؤياك أنّنا وقبل طلوع الفجر، وفي هذا المكان بالذات، سنكون مِنَ الهالكين"!.

وتلاطمتْ لفظة "هالكين" بالحيطان واخترقتْ أسماعَ النيام فاستيقظوا فزِعين، وصرخَ الأقطش، وهو بهذا الإسم لأنّه بأذن واحدة فيما الثانية التهمَها له إنسان بإهاب ذئب وقيل ذئب بإهاب إنسان: "هالكون؟! يا

ليتَني قبلَ مجيئي إلى هذا المكان الملعون اعتلفت فأموت شبعانا". وصرخَ الأجرب، وهو بهذا الإسم لأنّه يصيبه حِكاك بالعام شهراً من رذاذ البودرة الصفراء التي ألقوها على شعب: "ليتَني أوصيتُ أنثاي فتحذّر إبننا من القمار حتى ولو بالحديد والنار". وصاحَ المنتِن الذي لا يستحمّ على رغم حقّه أن يستحمّ أقلّه مرّة في الأسبوع: "دلّوني أرجوكم من أين الباب"؟!. ومِنْ شدّة الفزع لم يدر إلاّ وهو يلبط الأقطشَ الذي كان يقف بالصدفةِ المحض خلفه، وهذا الأخير فتح فمه مِنْ ألم اللبطة التي وقعتْ في خاصرتِه وأطبقَه على رقبة حمار يقف عند مرمى أسنانِه. واختلط الحابل بالنابل، وتقاتلوا، ومِنْ لا مكان طار أخيراً حافر ولفّ ودار وحطّ في أمّ وجه الوالي الذي صرخَ صرخة اهتزَّ مِنْ هولِها سقفُ البناء وتساقطَ رملٌ إيذاناً بالتهاوي على رؤوسِ الجميع. وانسحبَ المتقاتلون مِنْ الميدان وأحاطوا بالوالي مطمئنّين ومستفسِرين، وتطلّعوا إلى بعضِهم فإذْ هذا مفقوء العين وذاك مُبضَّع بالسكاكين وذيّاك مسبحةُ أسنانِه فارطة على الأرض، واندهشوا ممّا هم فيه، وحتى ساهين أنّهم كانوا قبلَ دقائق في حربٍ ولا حرب داحس والغبراء أو حرب البسوس أو حرب اللصوص الكونيّة الأولى أو حرب اللصوص الكونيّة الثانية. وارتفعتْ همهمات، وخوفاً مِنْ جولة ثانية استشعرَها الأجرب صاح بزملائه: "أرجوكم يا قومي اعقلوا". وصاحَ به المنتن: "ونعقل ماذا يا هذا"؟.

وصرفَ الأجلَ أن رفعَ الوالي يده طالباً أن يُصغوا إليه وهدّدَهم إذا لم يفعلوا بإسقاط قنبلة ذريّة على أمّهات رؤوسِهم، واستصوبوا أن يخيّمَ عليهم الصمتُ كأنّما على رؤوسِهم الطير، وقالَ لهم: "أيُّها الأحرار، أيّها الأبرار، فات ما فات، وكلّ ما هو آتٍ آت، والبحرِ الأجاجِ المتلاطمِ الأمواج، والنعاجِ والزجاجِ والأبراجِ وأقفاصِ الدجاج، إنّ شمسكم إلى انبلاج، فإذا أنتهيت من كلمتي فيكم اخرجوا من فوركم على رؤوس أصابعكم وبوجوهكم إلى دورِكم، وليعتلف كلّ منكم مِنْ معلفين وليشرب مِنْ جرنين ويتحزّم بنطاقين، وانهقوا والبطوا بمقدار ما تشاؤون، فليس على النهيق واللبيط والعضّ عدّ وحساب، وتثاءبوا، وستنامون، وستستيقظون، وستنسون كلَّ ما جرى في هذه الليلة المشؤومة _ المباركة، وستعيشون وستَرِثون وستُوَرِّثون". وبعدما خرجوا قصدوا دورهم، وبما أوصاهم مولاهم عملوا وقد حفظوا عن ظهر قلب، مثلما عمل المسنُّ والوالي ذاتهما أيضاً من دون أدنى شكّ.

6.

وقال مرجان: "ذُلّ مَنْ لا سيفَ له، وإذا كنتَ يا ميمون ريحاً فقد لاقيتَ إعصاراً. ماهيّة الريح قبضُ ريح، والشاعرُ قال: أمّي ما ماتتْ جوعاً \ أمّي عاشتْ جوعانه \\. ورأى عمرو سعداً عند مغارة، وسأله فحكى كيف دخلَ إلى المغارة وكيف فيها حضارة شعارها: "مِنْ كلٍّ حسب

طاقته ولكلٍّ حسب حاجته" ومَنْ يُضبط وقد أخفى فائضاً يكون عقابه الطرد. وذرفَ سعد دمعة بعدما قصَّ عن طمعِه وكيف حقّاً طردوه".

وسمع ميمون وأعرض بمحدّثه وقال: "جلسَ رجلٌ يأكل السمكَ والجبن وقال: ومِنْ أين يعلم السمكُ وهو ميْت أنّي أكلتُ الجبن"؟!. وأردف: "خرجتْ يدُ ابن الجصّاص مِنَ الفراش في ليلةٍ باردة فأعادها إلى جسدِه بثقلِ النوم فأيقظتْه فقبضَ عليها بيدِه الأخرى وصاح: اللصوص اللصوص، هذا اللّص جاءَ ينازعني وقد قبضتُ عليه، أدركوني لئلاّ تكون في يدِه حديدة يضربني بها، فجاؤوا بالسراج فوجدوه قد قبض بيدِه على يدِه". ألا ليتك يا مخّ البعوض تعرف ماذا تعني كلمة مُغرِض؟. والعالِم الحقّ لا يقول ما ليس بالشيء. إنّ ماهيّة الشيء هي غير شيء، والقبض على ريح شيء آخر، و"ماهيّة" فيها "ما" وفيها "هي"، وفيها غيرهما، و"ما" إسم موصول و"هي" ضمير منفصل و"التاء المربوطة" فلتانة، ويرعى بينهم الغزال"!.

قالَ مرجان متعجّباً: "كلامُك يا ميمون لا سلطان فيه سوى سلطان الثرثرة. ومَنْ غربلَ الناسَ نخّلوه، ولكلِّ ساقِطة لاقِطة"! (لكلِّ كلمة ساقِطة أذن لاقِطة) وسألَه كأنّه في مناورة: "ما هي آفةُ الحديث"؟. قال مستغرباً: "آفةُ الحديث الكذب"!. ابتسمَ مرجان وسأله: هل "ماهيّة الريح" جملة إسميّة"؟. قالَ: "نعم"!. سألَه: "وهل "ماهيّة" مُضاف والريح" مُضاف إليه"؟. قال: "أجل"!. سألَه: "والمُضاف والمُضاف إليه

في محلّ رفع خبر للمبتدأ"؟. قال: "الكوفيّون والبصريّون مجمعون على ذلك"!. سأله: "هل يُقال: أحمق مِنْ لاطمِ الأرض بخدَّيه"؟. استغرب السؤال أيضاً وقال: "ويُقال: أحمق مِنْ ناطحِ الصخر"!. سأله: "وهل تكون ريح مِن دِبر كما مِن مبعَر"؟. واستشعرَ ميمون خطراً ولكن لم يعلم موضعَه وأجاب: "بلى، تكون ريح مِن دبر كما مِن مبعَر"!. سأله: "وهل ترى في كلامي خطأ"؟. قال: "لا"!. قالَ منتشياً: "وهاك تعترف بلسانك أنّي لا أنطق إلاّ بالحقّ".

وفهمَ ميمون أن ندَّه شجرة، جذعها إستراتيجيّة وأغصانها تكتيك، هو يذَرّ المعلومات الصغيرة الصحيحة الكثيرة في الهواء لكي يمرِّر كذبتَه الكبيرة، ولن ينجو هو سوى بهذه الحِيلة أيضاً، وسأله فيما يوسّع له عينيه: "ماذا تقول بالمهراجا، كبيرنا العظيم، أبي زياد"؟. أحسَّ مرجان أنّ ميمون قد تعلّم منه بسرعة. قال: هو "أثبت في الدارِ مِنَ الجدار"!. سألَه: "هل توافقني أن نحتكم إليه"؟. قال وقد علم أنّ غريمه يفرّ: "سترى إذا انجلى الغبار \ أفرسٌ تحتك أم حمار".

وطارا إلى كبيرِهما في خيمتِه وألفياه جالساً تحت خيوط عنكبوت بين رأس غزال ومخّ ذئب وبراثن هدهد وشوك قنفذ ولسان تيس ومرارة غراب وفأر يتيم الأبوين وسلحفاة منقوش على ظهرِها تاريخ ميلادها وقارورة صغيرة فيها مِنْ شَعر قطّ أسود، وانبطحا وقاما، وسألهما، وأخيراً قالا: "قرأنا في المدرسة أنَّ الأمير فخر الدين الأوّل ذهبَ إلى

السلطان سليم بعد معركة مرج دابق وذلك في سنة 1516 وأقسمَ يمينَ الولاء فخلعَ السلطان على الأمير اللبناني لقبَ سلطان البرّ، واليومَ يصحّحون على مهل هذه المعلومة في الكتب المدرَسيّة وذلك لأنّ الأمير المذكور كان قد مات قبل معركة مرج دابق بعشر سنوات". قالَ كبيرهما: "لا يريدون أن يلعبوا معه \ لأنّهم فقدوا حبَّهم له \ لقد رأوه وهو يغشّ \ ويخفي أوراقَ اللّعب \ تحت الطاولة \\. ماذا هي الحرب سوى عين اللبيط؟!. ولماذا يقولون "حرب مذهبيّة" عوض أن يقولوا "لبيط مذهبي"؟. ولماذا يقولون "حرب عرقيّة" عوض أن يقولوا "لبيط عرقي"؟. ولماذا يقولون "حرب عالميّة" عوض أن يقولوا "لبيط عالمي"؟. ولماذا يقولون "حرب النجوم" عوض أن يقولوا "لبيط النجوم"؟. واكتظّت السفينةُ بالنوارس المهيضة الأجنحة، وقام مجرمون وخرقوا السفينة خرْقاً لا علاج له فغرقتْ ورقصتْ أسماكُ القرش مع النوارس الكسيرة واصطبغَ البحرُ باللونِ الأحمرِ القاني. وقيل: وقفَ بأبي العيناء الكفيف رجلٌ مِنَ العامّةِ فأحسّ به فقال: مَنْ هذا؟. قال: رجلٌ مِنْ بني آدم!. قال: مرحباً بك، أطالَ اللهُ بقاءَك، ما أظنُّ هذا النسل إلاّ قد انقطع".

وارتعدتْ مفاصلُ مرجان وميمون وقالا معاً بصوت واحد: "ما أعلمك. قد أشكلتْ علينا "ماهيّةُ الريح" ماذا ماهيّة الريح؟. هي أجرٌ لا يكفّ عن السباق ولا يلحق"؟. احمرّتْ عينا الكبير حتى قولوا هو هُبَل وقال:

"تعالا إلى حيثُ النكهة، أليس عندنا تقولُ الأجدادُ إذا أشكل علينا أو غُرِّر بنا ليس أمامنا إلاّ ميدان الطعان، والمنتصر ينتصر قولُه معه والمهزوم ينهزم قولُه معه؟. ولا أظنّكما من الكفّار". وقصدا مَصرعيهما. وتبارزا بالسيف والترس إلى غيابِ الشمس حتى تعاكستْ بينهما ضربتان صائبتان وانشطرا إلى أربع قطع من الرأس إلى الذيل أو إلى العصّ – العصاص.

وعلِمَ الكبيرُ وتأثّرَ وقالَ: "عطشَ أيل فأتى عينَ ماء ليشرب منها، نظرَ خيالَه في الماء وحزنَ مِنْ دقّةِ قوائمِه، لكنّه ابتهج مِنْ قرونِه المتعالية وكبرِها، وحين خرجَ عليه الصيّادون في السهل لم يدركوه لكنَّه حين دخلَ الجبال وعبَرَ بين الشجر لحقوه وقتلوه، فقالَ عند موته: أنا المسكين لي الويل، فالذي ازدريتُ به خلّصني والذي رجوتُه أهلَكَني. ومرضَ غزال وجاءَ أصحابُه يعودونه ويأكلون العشب، ولمّا أفاق مِنْ مرضِه والتمسَ شيئاً ليأكلَه لم يجد فهلك جوعاً. وهكذا هو حظّي فإذا استوى فسكِّين وإذا إعوجّ فمِنجل".

7.

عيناه مصباحا سيّارة فولزفاغن، أذناه ناطحتا سحاب، قوائمه أعمدة كهرباء شاهقة، رقبته رقبة فيل وأضخم، إذا زفر وشهق قولوا هدير بحرٍ أجاج متلاطم الأمواج بعد أن عبرت مجاله عاصفة هاربة من

وجه العدالة. اشتراه من أحد الأسواق مَن عرف حقّ قدره. وعرف بالأمر جنرال كان يعدّ العدّة لغزو بلاد جمهوريّة الموز التي فيها نظام ديكتاتوري، وآن، كما قال، أوان استبداله بنظام ديمقراطي حرّ، وليس طمعاً بإنتاجها الغزير من الموز ذي الحجم الكبير حقّاً، حتى بلغ طول موزة في سنة 1914 حوالي 1918 متراً، وبلغ طول موزة في سنة 1939 حوالي 1945 متراً، وكانت كلمته الأخيرة أن يستأجر العبد بمقابل يدفعه لصاحبه مقداره يسيل له لعاب الميت إذا ما احتُسب بالموز، فهو لا أقلّ من ألف ألف موزة شهريّاً، وسيرسلها إليه بالشحن الجوّي المضمون من جمهوريّة الموز ذاتها، ومؤكّداً في آن أيضاً أنّ العبد لن يتعرّض لخطر ما دامت الحرب، وفي أعقد حال، هي لا أكثر من عمليّة جراحيّة بسيطة.

وقامت الحرب الضروس بعدما شمّرت عن ساقيها وهبّشت وجهها وأعولت عويل حروب الذئاب، والنتيجة أن مات خلق كثير. والحقّ أنّ العبد العملاق استبسل استبسال الأبطال حيث كان يحمل العتاد والمؤن إلى جبهات القتال خلل الأودية السحيقة ومسالك الجبال الوعرة ويعود محمّلاً بالقتلى والجرحى والمحمومين من عسكريين ومرتزقة. ونوّه ببسالته وشجاعته وصبره واحتماله ومثابرته وكفاحه زملاء له حتى حاز رتبة "عتّال" بعدما كان برتبة "شيّال"، ثمّ بعد فترة رفعوا شأنه أكثر وحاز رتبةَ "حمّال". وكان مع كلّ رتبة، والحق يُقال، يحوز مكتسبات

جديدة، ومثلاً كان يشرب من ماء البرك التي تعجّ بالعلق وصار يشرب من القناني مياهاً معدنيّة، وكان يأكل ممّا ينجم من غثاء وصار يأكل الجوز المقشّر واللّوز الأخضر والجزر والكرز والأرزّ، ولا ننسى الموز الفاخر، وكان يستحمّ إذا خاض في نهر أو سقط عليه وابل من مطر، وصار له معاون يعمل في خدمته ويحمّمه وينشّفه ويعطّره بالعطور الباريسيّة الراقية.

ورجحتْ كفّةُ الغزاة الجبابرة لكن إلى حين ما دام أهل جمهوريّة الموز قد قرّروا المواجهة والصمود، فما هذه الديمقراطيّة الحرّة التي يُراد أن تُفرَض وهي تؤكّد حقَّ انتشار الذئب بين الحملان؟، وكانت جمهوريّة الموز كلّما فقدت إبناً ينهض لها مكانه إثنان. وترنّح الأعداء. واستدعى الجنرال قادة جيشه الخميس للنظر في هذه المعضلة التي لم تكن في الحسبان، فما كان عمليّة جراحيّة بسيطة صار عمليّة جراحيّة خطيرة فيها حياة أو موت، وهو لن يسمح تحت أي ظرف من الظروف أن تفوز البربريّة على المدنيّة.

واستقدم أسلحةً تكتيكيّة واستراتيجيّة جديدة، واستعرّت النيران أكثر حتى كأنّها من ألف بركان ولا براكين الطبيعة في غابر العصور والأزمان، وامّحت مطارح عن الخريطة، وعلى الرغم انتكس الغزاة أيضاً، ولاحظ أخونا الحمّال، والحال هو على هذا المنوال، أنّ رفاق السلاح زيادةً قد فقدوا عقولهم كليّاً، وصاروا لا يوفّرون أسيراً صبيّاً أو مسنّاً، يضربونه

بالحديد ويرمونه جثّة هامدة على الطرقات فتكون نهباً للمناقير وللذباب والديدان، ولم يتردّدوا حتى عن قصف القرى البعيدة وإضرام النيران في بيوتها التي كم تشبه أعشاش عصافير الدوري وإطلاق النار على كلّ من يحاول الفرار من الموت المحتّم. وثمّ انشغلوا أيضاً ببعضهم، وكان أوّل المنشغلين به أخوهم الحمّال ذاته، ومثالاً عوض أن يقولوا له تقدّم صاروا يقولون له "حا" وعوض قف يقولون له "هِش"!.

وبعدُ أصدر الجنرال أمراً بالتقنين الغذائي وقد شحّ، معتذراً عن وصوله إليهم بسوء الأحوال الجويّة، تمويهاً طبعاً على حقيقة انقطاع سبل التموين بتدبير حكيم من المقاومين، وكان الحمّال كالعادة أكثر الخاسرين حيث طارت امتيازاته، وطلب مرّة قنينة ماء فأعطوه واحدة فارغة قائلين: "املأها منك، والمثل يقول: "احفظ بولك الأصفر ليومك الأغبر".

واستمرّ هذا الحال الكارثي، والموت يحصد بالمجّان، وحتى قرّر أن يحصد الحمّال، وكمَنَ له في مرّة تحت حجر عند كتف جبل شاهق، فتعثّر فيما يدوسه وكاد يسقط هو والحمولة في الوادي السحيق، لكنّه توازن بإعجوبة. ومرّة رآه حاصود الموت يشرب هو وفرقة عسكريّة من نهر فأوحى للمقاومين أنّ الحمّال العملاق ذاته قائد الغزاة فقصفوه بالهاونات ومات جميع مَن معه إلاّ هو حين زحف على بطنه ونجا. وجُنّ جنون حاصود الموت وقرّر أن يقتل غريمه بالحرب النفسيّة

الأخطر، وأوحى لذبابة قريبة أن تطنّ عند أذنه، وهدّدها إذا لم تفعل بأن يسحب روحها من قلبها، ففعلت. وظنّ الحمّال المتوتّر والمنهار أنّ ما يسمعه هو هدير صاروخ عابر للقارّات ولديه أوامر محدّدة: أن ينفجر في أمّ رأسه داخلاً إليه من إحدى أذنيه. وطار في السماء عامودياً فيما مرّة يزعق ومرّة ينعق ومرّة يعوي ومرّة يبكي ومرّة يضحك. ووقع أخيراً بكلّ ثقله على الأرض لكن أيضاً لم ينفق.

وفتك المقاومون بالإحتلال فتك المنجّد بالصوف أو فتك الذئب بالخروف، وبدأ يفرّ من جبهات القتال فرار الأرنب أمام الأسد الرئبال، ولم تبق له أخيراً إلاّ مغارة قيل هي سفارة حطّت عليها مروحيّة عسكريّة وانتشلت من تبقى منه ومن جماعة موالية وتركت خلفها موالين كثر، ثمّ وهي تطير قفز أحدهم وتعنزق بحبلٍ كان يتدلّى منها ولم يكن سوى الحمّال ذاته.

ورجع إلى ديرته لكن ليس بكلّ عقله، ويوميّاً تعاوده صوَر ممّا عانى ورأى، فيغرق بذاته حتى انهارَ كليّاً ولفظ آخر أنفاسه. وقال الراوي يا سادة يا كرام، ولا يطيب الكلام إلاّ مع ذوي الأفهام، أنّ زوجة سيّد العبد، وهي التي كانت مجنونة بحبّه، جلست عند نافذة بيتها الوافر الظلال مطلّة على المدى والشتاء، وقالت لصديقة لها كانت تواسيها وهي تبكي وتمسح عن خدّيها دموعها الغزيرة إنّها ذهبت إليه قُبيل موته وهو في مرقده ورأته يفتح بالكاد فمه ثمّ يغلقه مصدراً صوتاً ممّا

هو فيه: "هل كان يبكي؟، هل كان يهذي؟، هل مثْله مثلنا يا صديقتي يبكي ويهذي"؟.

. 8

.. ووضع يدَه بالقوّة الغاشمة على بلاد شاسعة تتوزّعها الينابيع والبرك والآبار والأنهار، وزجّ أهله جميعاً في البلاد المجاورة المأهولة كلّها بالرمل، والويلُ والثبورُ وعظائمُ الأمور إذا اجتاز الحدودَ واحدٌ منهم ولو يكاد ينفق جوعاً وعطشاً. وفي صبيحة يوم، وفيما هو الطاغية يتفقّد حدودَ الأمارة أو المملكة أو الإمبراطوريّة، وجميعها مسميات لكوارث تقع في الأرض، ويبعِّر عامداً في عشّ قبّرة، ثمّ يزفر ويشهق بصوت ولا أنكر ليقطع على حرذون صلاته لجلالة الشمس، أو يفجّر قنبلة من دبره أو من مبعره تسميماً للهواء، وقعتْ عينُه بعين ذئب أغبر له أنياب أطول مِنْ رماح الرومان ومخالب أين منها خناجر الحشّاشين ويلفّ ويدور وكلّما يُضيِّق عليه الدائرة. لكنّه ذاته عظمه أزرق ويجيد الملاكمة، وحافر منه ولو هو طائش سيفجِّم له رأسه. وتشبّثَ بمكانه، ودارَ مع الذئب مثل عقارب الساعة والعين بالعين حتى لحظه كلّما يتمهّل، وشجّعه على الإبتعاد عن المكان بنقرات على الأرض لها معاني ودلالات.

وتوقّف الذئبُ فجأة عن اللفّ والدوران، واستشار عقلَه إذا يكرّ أو يفرّ؟. سمعَه عقلُه جيّداً وقال له: "وأخيراً تذكّرتني؟ هل أعماكَ يا أبا سرحان مُرُّ جوعِك عمّا أنت مقبل عليه ومواجهه من مخاطر فأذعنتَ لديدان بطنِك التي أشارت عليك بسخافتك؟ أنظرْ إنّه جحش وحش، وإذا لبطك وأصابَك قلْ حطّمَك وحطّمتني معك، خذْه بالحيلة، والحربُ حيلة، وعندما توافيك فرصة لا تتأخّر وانقض عليه وهو من بعدُ ألف صحّة وعافية على قلبك ولكن في آن خذْ حذرَك: عجِّلْ ولا تستعجلْ".

وارتاحَ الذئبُ لمشورةِ عقلِه ورمى ستارةً غطّى بها رماحه وأعادَ خناجرَه إلى مغامده وجمع ذيلَه إلى ساقيه وفتحَ حنفيّة ماء سريّة وأطفأَ نيران عينيه وسالت قطراتٌ على خدّيه باكياً كأنّه حَمَل وديع فقد في الزحمة أمّه. ورآه أخونا الجحش على هذه الحال بعدَ تلك، وأخذَه العجبُ ورقَّ له، ولكن على الرغم قالَ مظهراً القسوة: "أنطقْ، فماذا تفعل ها هنا أيّها الكلب؟، أنطقْ وإلاّ سأنزل بحافر على أمّ نافوخك". قال له بالثغاء لا بالعواء: "أيّها الملك أنا عبدك، تاهت بي السبل ورمتْني إلى جوارك، وقد رأتْكَ عيناي مِنْ بعيد ولم أصدّقهما، وفركتُ أذنيهما حتى لا تغشّاني بعدُ، ولكنّهما أقسمتا أنّ أنتَ هو حقّاً أنت، وعدوتُ إليك وغزلتُ كالمجنون حولك، وها أنت حقّاً هو أنت وليس أي أحد غيرك، وصفوا لي جمالك وها أنا أراك فما أحلاك وما أبهاك، وسمعتُ عن بحورِ علمِك وكنوزِ عقلِك ومَبلغِك في صراعِ الحضارات ونهايةِ التاريخ

والضرباتِ الإجهاضيّةِ أو الإستباقيّة أو الوقائيّة، وما هو الفارق بين الكوزموبوليتيّة والعولمة وبينهما وبين الأمميّة؟، وأنا الآن ألتمسُ أن أتعلّمَ مِنْ كلّ ذلك عليك".

وابتسمَ حمار الحمير تعبيراً عن الرضا لكنّه سرعان ما أظهر الغضب وقالَ لأبي سرحان: "قلِ الحقّ أيّها الأخرق وإلاّ نتّفتك، هل أنت طالب عِلم أم أنت طالب لحم"؟. ويكذب عليكم سيّداتي سادتي مَنْ يدّعي أنّ الذئب لمّا سمعَ من الجحش هذا السؤال لم يزرق، فكيف حمار ويسأل؟ ولا بدّ أنّه انكشف، وأنّ هذا شيطان بإهاب حمار، وحتماً سيسفك دمَه. ورجع إلى عقله الذي لم تنطل عليه حيلة الحمار، وشجّعَ صاحبه وقال له: "لا تخشاه، وإذا لديه سؤال فأنت عندك ألف سؤال مثله وأخطر، فأين المنجنيق مِنَ الصاروخ؟، كرّ وأنت حرّ". وكرَّ وقالَ للحمار: "ليتني يا حضرة الإمبراطور أفقد أبي وأمّي إذا بحضرتِك يزلّ لساني، فأنتَ أعلم أنّي نشأتُ على اللّحم الفاتك بالجسم ثمّ اهتديتُ بالأمس فقط إلى العشب الذي هو للجسم بلسم، وانظرْ يا مولاي ولا مولى لي غيرك إذا يبلغ حجمي ثلثك بغير أنّك مفطور على الحقّ وأنا اهتديتُ إليه متأخّراً جدّاً"؟. ولمحَ غيوماً تحتشد في السماء وقال: "وتلك الغيومُ التي في السماء تشهد أنّي طالب عِلم وليس غير العِلم". والتفتَ الحمار بعينٍ حذرة صوب السماء كأنّه حرباء فيما الثانية لا تفارق الغريم، ورأى الغيوم واتّخذَ ممّا سمع وممّا رأى رأي العين شهادة لا يخرّ منها

الماء على طهارة محدّثه، وسارعَ إلى الإبتسام المشعّ وقال: "بل أنا أمزح معك". وقالَ عقلُ الذئب لصاحبِه: "تابع، فالسمكة تقترب مِنَ الطعم الطيّب".

وقالَ الذئبُ: "ما من شكّ عندي يا جلالتك أنّك على ريق بطنِك بسبب من مشاغلك في سبيل سعادة رعيّتك، فما هو رأيك يا دام ظلّك وعزّك لو نتصارع حبيّاً؟، لا أنت تلبطني ولا أنا أرفسك، وفقط نتدافع، ومَنْ يقع منّا أرضاً أوّلاً يكون هو المهزوم، وأنا حتماً سأكون المهزوم، فما مستوى مقداري إلى عظيم شأنك؟، وسأنهضُ فيما ترقد أنت مستريحاً عظيماً رائقاً مكانك، وسأذهبُ وسأعود محمّلاً بأشهى ما يطلبه بطنُك، وتأكله جميعاً وحدك، وأمّا من جهتي فلن أتناول لقمة، فمِنْ خيرِك، وقبل تشرّفي بك، التهمتُ خيشةَ تبن، وليس بعدُ في بطني محلّ لضلع عشبة واحدة". قالَ الحمار لذات ذاتِه: "ما أسعد طالعي، لا بدّ أنّه ذئب ملاك، لأقعنّ له وأُعلننّه منتصِراً، وسأحثّه على لزوم مكانِه، وسأذهب بذاتي وأعود إليه بما يرغب من الورود والزهور والربيع وأحلف عليه أن يأكل ملئ بطنه، وسأتّخذه نديماً ما حييت، ما أطهره، هو ضيفي ويعمل أنّي أنا ضيفه"!. وقالَ له: "إذا تريد أيّها الملاك أن تلهو فأنت في حضرة خير مَنْ تهوى الكائنات جميعاً أن تلهو معه، هيّا إلى المصارعة الحبيّة". وقالَ عقلُ الذئب لصاحبِه: "اجذبِ الخيط فالصنّارة بلغتْ بطنَ السمكة".

وفيما أخونا يُعطيه قفاه بحسب الخطّة التي خطَّها لذاته أنشبَ الذئبُ أنيابَه ومخالبَه، وفيما هو يقفز وفي التكّة ذاتها ضجّت السماءُ بالبرق والرعد المُفزِعين كأنّما لن تبرق ولن ترعد بعدُ أبدا، وأجفلَ حمار الحمير وطيّرَ حافران _ صخرتان أصابتا صدرَ السيء الحظّ وهو ناشب، فطارَ عموديّاً كما في الصور المتحرّكة، واخترقَ الغيومَ السود، وبلغَ فوقها نقطة ممنوع عليه أن يتجاوزَها، وهبّتِ الجاذبيّةُ الأرضيّة وأمسكتْه مِنْ ذيلِه وجذبَتْه بقوّتها المعهودة إلى تحت، وسقطَ بكلّ ثقله، ودبعَ على الأرض دبعةَ نيزك، وأحدثَ حفرةً مهولةً واستقرَّ فيها مغميّاً عليه. ولمّا فتحَ عينيه فيما المطر ينهمر رأى ما تمنّى لو لم تنفتحا، فحمار الحمير واقف على قائمتيه الخلفيتين عندَ رأسه تماماً، وهو يلاكم السماء، وظنَّه أنّه الأبجر حصان الفارس المغوار عنتر أو الأخرج حصان البطل الجبّار الزير سالم أبو ليلى المهلهل، وأنّه مِنْ شاهِق يريد أن يرتمي عليه ويخبص لحمه بعظمه، وصاح كأنّه أبو صيّاح: "والدجاجةُ سوداء والديكُ شحبَر، هذا هو يومي الأغبر، جئتُ طالباً وها أنا المطلوب"!. وكأنّه رفّاص مضغوط وارتفع عنه الضغط فجأة، أو كأنّه عصفور دوريّ في قفص وانفتح له باب القفص، أو كأنّه صاروخ على أهبةِ الإنطلاق إلى القمر وقيل: "ثلاثة، إثنان، واحد"! وقفزَ أو طارَ أو فرّ أو انطلق، وكان الحمار يناديه أن يرجع

أخاً عزيزاً، مؤكّداً أنّه لم يكن يقصد وأنّه فقط جفل، ولكن من دون فائدة.

وبلغَ الذئبُ صخرةً وارتمى خلفَها مقطوع النفس، وظلّ كذلك حتى إذا شعرَ بعافية، وتأكّد أنّ الملعون لا يتتبّعه، راح يلعق مواجعَه ويتفّ على الأرض كلّما علقتْ شعرةٌ بلسانِه كأنّما يتفّ على حاله، ثمّ وهو ينهض عازماً ألاّ يدعس ها هنا بعدُ ولو فرّموه رأس عصفور، وقيل: ولو عملوه كفتة، وإذْ صدى مقبل لاهثاً مِنْ مشقّة، رسولاً، حاملاً إليه رسالة مِنْ زوجتِه الذئبة الغبراء تقول فيها: "السلام عليك يا حبيب قلبي ويا نور عيني يا أبا سرحان، أعلمك أنّ الحال لم تعد هي الحال، أنا منذ أيّام لم تدخل لقمة إلى بطني، جفّ حليبي يا بعلي، جراؤك يفنون، لا أستطيع أن أغادر الوكرَ طلباً للرزق مخافةَ أن تستفردهم الوحوش، الدنيا غابة يا سبعي، إرجعْ إلينا يا أبا سرحان سالماً غانماً هذا المساء كآخر مهلة وبعدها لا تلمني فلا خيار بعدُ لأنّي سأخرج من الوكر مع ما في ذلك مِنْ الخطر الذي تعلم، والجوعُ كافر يا أبا سرحان، إسمعْ أنين ابنِك سرحان، النجدة يا حبيبي يا أبا عيالي، النجدة النجدة، النجدة النجدة".

وذرفَ الذئبُ دموعاً جرتْ على خدّيه سيولاً مِنْ شدّة ألم ضيقِ ذاتِ اليد، وأخيراً هبَّ عقلُه وقال له: "تبكي كالأطفال، يا حيفي، ولو لم أعرفك منذُ نشأتِك لأنكرتُ أن تكون أنت أنت، ولو علم بذلك العالِم

العظيم داروين صاحب أصل الأنواع لأمسك حتماً كتابه ورماه للعنز، أنتَ خسرتَ جولة لا الحرب، أليس لكَ أصدقاء صدَقتَهم وصدَقوك ونجَدْتَهم ونجدوك وعويت لهم لا عليهم؟، قمْ واعوِ وانظرْ ما سيكون مِنْ شأنهم". وارتقى الذئبُ صخرة وعوى مِنْ فؤاد مكلوم عواء الإستنجاد، وهبّ صدى هبوب الكريم لنجدة أخيه الكريم، وحملَ العواءَ وطارَ به مجتازاً سهولاً وجبالاً وغابات وقفاراً واستقرّ أخيراً في مسامع عصبة مِنَ الذئاب الصناديد الذين ليس فيهم خؤون أو رعديد، وقالَ الفتى أبو جعدة: "إنّه أخونا وصديقنا وحبيبُنا أبو سرحان، والخبزِ والملحِ الذي بيننا لن يدري إلاّ ونحن عنده". وطاروا إليه طيرة نَسِر واحد، وحقّاً لم يدرِ إلاّ وهم عنده، واحتضنَهم واحتضنوه وبوّسَهم وبوّسوه، وأنبأهم بالخبر اليقين، وأخيراً قال لهم: "واللعين لا بدّ الآن يعمل ما يليق به ويروق له ويقضم بحجارة أسنانِه أزاهرَ الناحية الطريّة البريئة أو يجلد بسوط ذيلِه الذباب الضعيف الذي يقتات على بعضِ بعضِ بعضِه". وثارتْ ثائرةُ الذئاب حتى قالَ أبو جعدة والشرر يتطاير مِنْ عينيه: "وذمّةِ الذئاب هو ديكتاتور، ولا بدّ أن نضعَ له حدّاً ونجعل منه عبرة لمَنْ يعتبر". وانطلقوا يقودُهم أبو سرحان، وأشرفوا من مرتفع، ورأوه لا يزال في مكانه كأنّما ولا على باله ويعمل عين ما سمعوا عنه. وحاصروه، وكَرّوا عليه وفرّوا منه، وخابطَهم ولابطَهم، ولمّا شعرَ بوهنٍ يتسلّل إليه طلبَ النجدةَ بالنهيق المرّ من أهله الذين مِنْ شدّةِ الضعف

الذي هم فيه لم ينجدوه، وعندما تخضّب جسمه بالدمّ أخيراً انهدّ حيله ونخّ أو رقد، وأسرعوا وتراكموا عليه وأوسعوه طعناً حتى إذا أخرج لسانَه عضّه ولفظَ آخرَ أنفاسه. وتوزّعوه فيما بينهم حصصاً، ثمّ قبل أن يرجعوا إلى عائلاتهم تبرّزوا منه مثلما تبرّز آباءٌ وأجدادٌ لهم آباءً وأجداداً له، وأين؟، في هذا المكان بالذات.

9.

أخيراً قالَ الراوي يا سادة يا كرام، ولا يطيب الكلام إلاّ بحضرة ذوي الأفهام: "ثمّ بالثْ بينهم الثعالب! (وهذا المثَل يُقال في القوم يقع بينهم الفساد) لم تكن عنصريّة إلى أن صارَ هذا منه روْثٌ وذاك منه بعرٌ وذيّاك منه سرجين.. إلخ، عِلماً أنّ المصدرَ هو واحد ولو مرّة يسمّونه المبعَر ومرّة يسمّونه الدبر، وكانوا يتكافلون حتى وقعتْ واقعةٌ وصارَ الدولار والدينار والإسترليني والينّ والروبيّة والروبل والليرة وقرون أخرى كثيرة، غير أنّ البعض أحسّ بالعار الذي يحصد كالهواء الأصفر فجمعَ قرونَه وجعلَها قرناً واحداً له إسمان: الأوّل هو "يورو" وهو الإسم العلني والثاني سرّي ولكن يُشاع ويملأ الأسماع أنّه "فوهرر".

وفي يومٍ اعتلى المنبرَ الأميرُ أَحْمِرَة وقالَ بلسانِ القعقعة! (لسان السيوف) وقيل بلسانِ الصرصرةِ! (لسان البازي) وقيل بلسانِ السجيرِ! (لسان النار): كم تلدغُ العقربُ وتصيءُ! (وصاءَ الفأرُ والعقربُ

والخنزير وما شابه: صاحَ، وهو مثَل يُضرَب للظالِم الذي يتظلّم) إنَّ الربَّ معنا! (وقد سادتْ هذه العبارة بين جنود بسمارك وهتلر لتبرير الإنتصار بقوّة الحديد والنار) نحن نُكمِلُ صنيعةَ الربّ! (وقد سادتْ هذه العبارة بين الفرنسيين منذُ حروب الفرنجة حتى الغزوات الإستعماريّة) لدينا رسالةُ حضارة! (وانتشرت هذه العبارة على ألسنة منشئي التمييز العنصري) ولا يُندَب للأمرِ العظيم إلاّ مَنْ يقوم به ويصلح له، ولا يُجمَع سيفان في غمدٍ واحد، والمراعي والمعالف والبرك والأجران كلّها لي، أنا أجرأُ مِنْ أسامة! (وأسامة إسمُ الأسد معرّف لا تدخله أل التعريف) أنا أبقى مِنْ وحي في حجَر! (وقيل أنَّ أهل اليمن كتبوا الحكمةَ في الحجارة طلباً لبقائها) أنا أبلغ مِنْ قُسّ! (وهو قُسّ بن ساعدة الذي يُضرَب به المثل في الفصاحةِ والخطابةِ وكان مِنْ حكماء العرب وهو أوّل مَنْ قال: أمّا بعد، وأوّل مَنْ قال: البيّنةُ على مَن ادّعى واليمينُ على مَنْ أنكر) أنا ابنُ جلاّ! (جَلا الأمورَ وكشفَها) أنا أبهى مِنَ القمرين! (الشمس والقمر) أنا آكَلُ مِنْ الحوت وأبصَرُ مِنَ الوطواطِ بالليل. ويُروى أنَّ العرب زعمتْ أنَّ حيّةً كانت تعيش في سقفِ بيتِ أحدهم فقتلتْه، عندئذ أخذَ أخوه يتحيّن فرصةً تمكّنُه مِنْ قتلِها ليثأرَ أخاه فأرادتِ الحيّةُ أن تسالمَ صاحبَ البيت فقالتْ: "هلمّ نتصالح وأنا أقدّمُ لكَ عن مصالحتِنا كلَّ طالع شمسٍ ديناراً". فوافقَها على ذلك، فلمّا اغتنى وزادَ مالُه هاجَ في قلبِه وأفكارِه ذكْرُ أخيه فهمَّ أنْ

يثأرَ مِنَ الحيّة فهيّأ فأساً واستعدّ لقتلِها، وراقبَ مجيئها فضربَها بالفأسِ فقطعَ ذنبَها فانسلّتْ واختبأتْ، فتأسّفَ الرجلُ لأنّه لم يثأر، فندمَ وطلبَ مِنَ الحيّة المصالحةَ فأجابتْه: "لا يمكن أن يتمّ صلحٌ بيننا ما دمتَ ترى قبرَ أخيكَ وتذكره وما زلتُ أنا أرى أثر ضربة فأسِك في ذنَبِي".

وأنشد يقول: يقول الزيرُ قهّار الأعادي \ أنا السبع الجسور بكلّ وادي \ غداً لا بدّ أمشي للقاهم \ وأحصد جمعهم يوم الجلاد \ وآخذ ثأرنا مِنْ آل بكر \ وأطفئ النار مِنْ طيّ الفؤاد.. \\ يقولُ الزير أبو ليلى المهلهل \ وقلب الزير قاسي ما يلينا \ فدوسي يا يمامة فوق رأسي \ على شاشي إذا كنّا نسينا \ فإن دارتْ رحانا مع رحاهم \ طحنّاهم وكنّا الطاحنينا".

وتسلّل المدعو صدى مِنْ بينِ الجموع التي تصدِّق وبوجهه إلى الأمير حُمُرَات الذي لا شيء مِنْ قبح المنظر إلاّ وهو آخذ منه بنصيب ويغضبُ له إذا غضبَ مليونُ سيف لا يسألونه في ما غضب، وسمع مِنْ صدى وشخرَ ونخرَ وضربَ الأرضَ بقدمِه وتأخّر وأعطاه كيسَ ذهب فأخذَه من دون أن يحظى بشرف مصافحة وقد مدَّ يدَاً لها.

وسُئلَ حُمُرات عن السرّ مع أنّ العميل صدى هو عميل نشيط، قالَ وهو يعلّق طوقاً مِنَ الألياف النباتيّة حولَ عنقه فيما حذاء وقطعة جلديّة يتدلّيان على صدره: "كان ضابط نمساوي قد أطلعَ نابليون على معلوماتٍ أكسبتْه المعركة، وفيما نابليون كان ممتطياً جواده رمى له

صرّةَ ذهبٍ وقال: خذها هي لك. قالَ الضابطُ النمساويّ بعدما التقطها: وبي رغبة أن أتشرّفَ بمصافحةِ الإمبراطور. قال نابليون: لأمثالِك الذهب، أمّا يدي فلا تصافح مَنْ يخون بلادَه".

ونادى أن تأتيه عساكرُه وتصطفّ أمامه. واحتشدَ مليون حافر ونصف مليون منظار ليلي ونصف مليون جهاز إشارة أو إستشعار وربع مليون مزمار وزمّور خطر وربع مليون مدفع مِنَ الأحجام كافّة وكلّها أين منها مدافع نافارون وربع مليون من السياط وعشرات الملايين مِنَ الأسنان.

وصعدَ حُمُرات إلى المنبر وقالَ بعدما أصلحَ حالَه: مَنِ استبقاكَ ما عرّضَك للأسد، وجِلْدُ الخنزير لا يُدبَغ! (ويُقال هذا المثل لمن لا يحيك فيه النصح) وجاءَ في صحف أنَّ شاعراً مجونيّاً رأى غريماً في أحد المجالس له لحية بيضاء وشَعر رأس أسود فسأله مداعباً: "هل تعلم لماذا لحيتك بيضاء وشَعر رأسِك أسود"؟. قال: "لا"!. قال: "لأنّ فكّيك يشتغلان أكثر مِنْ صدغيك". بلغَ السكّينُ العظمَ! (يُضرَب لما جاوزَ الحدَّ). أحمِرة ناشرٌ أذنيه! (طامع دكتاتور). يزعم أنَّ المخالي والبرادع والحياصات والمراعي والمعالف وبرك الماء والأجران هي له وليست كلّها لي، إنّه يُطيِّن عينَ الشمس! (يستر الحقّ الجلي الواضح). إنْ سلمتَ مِنَ الأسد فلا تطمعنّ في صيدِه. وحديثُه حديثُ خرافة! (وخرافة! هو رجلٌ حدّثَ بما رأى مِنْ جنّ فكذّبَه أهلُه). إنّه أتْيَه مِنْ

قوم موسى وأجرد مِنْ صلعة، وماذا عساه يبلغ عضُّ النمل. وقيلَ لمزبّد وقد اشترى حماراً: "ما في هذا الحمار عيب إلاّ أنّه ناقص النفس، بليد، يحتاج إلى عصا". قال: "إنّما كنتُ أغتمّ لو كان يحتاج إلى بزماورد! (طعام مِنْ بيض ولحم). فأمّا العصا فإنّها سهل". أنا منيعُ الجار حامي الذمار! (رمز الشجاعة) أنا سيّدُ قومي وخطيبُهم! (سيّد اللّسان) أنا ملجأ قومي وربيعُهم! (علَم السماحة المرتفِع والمرفرف). بلغني أنّ أحمِرة يستعدّ للحرب، وقيل: غزالٌ هربَ مِنَ الناس فجاءه الأسد وافترسَه داخل المغارة قائلاً: "وقعتَ في يد مَنْ هو أشدّ منهم". ويتباهى أنّ جيشَه أكثر غباراً مِنْ جيشي ولا يعقل الحمارُ قولَهم: أرنب قالَ للبوءة متباهياً: "أنا ألِد كلّ سنة أولاداً كثيرين". قالتِ اللبوءةُ: "صدقتَ، غير أنَّ واحداً ألِده أنا فهو سبع".

وأنشدَ حُمُرات عن أبي الفوارس عنتر: سلي يا ابنة العبسي رمحي وصارمي \ وما فعلا في يومِ حربِ الأعاجم \ فإن عابوا سوادي عند ذكري \ وجاروا مِنْ عناد في ملامي \ فلي قلبٌ أشدّ مِنَ الرواسي \ ولوني مثل لون المسك نامِ \ وما أسمو بلونِ الجلدِ يوماً \ ولكنْ بالشجاعةِ والكلام". وفيما هو يغادر المنبر على إيقاع التصفيق والزغاريد والأهازيج والرصاص قال لذاته بصوت مسموع: "هناك شيء ما فاسد في مملكةِ سيلينا".

وفي يومٍ صائف! (من صيف) اصطفَّ الفريقان وبدأتْ مبارزةُ الفرسان وطلبَ السعدانُ ذؤالةَ، وقبل أن يتمّ كلامَه وجدَ ذؤالة يقف قدّامَه ويصدمه صدمةً هائلةً ويضربه بسيفِه البتّار على مفرق شعرِهِ ويقسمه قسمين. وبرزَ نملُ اللهب وطلبَ نملَ الحصاد، ولم يزالا في أخذٍ وردّ وقربٍ وبُعْد حتى أخيراً طعنَ نملُ اللهب خصمَه بالرمح في صدرِهِ وطلعَ يلمع مِنْ ظهره، ونظرَ نحو الأعداء وكرَّ عليهم وهو يصيح: "أتاكم الفتى نملُ اللهب". فتبعه قومُه، فصاحَ أحمِرة بعساكرِه: "خذوهم بأسنّةِ الرماح". والتقتِ الأبطالُ بالأبطال، وجرى الدمّ وسال، وتقطّعتِ الأوصال حتى المساء حين افترقوا.

وفي الصباح اصطفّ الفريقان. وبرزَ الصوصُ وطلبَ الفصيلَ الذي التقاه بقلبٍ أقوى مِنْ صخرِ الصوّان وقال: "لم أستطع ترْك الدخّان فأفطرتُ في رمضان". قالَ الصوص: "مَنْ أكل ثوماً أو بصلاً فليعتزلْنا". وأنشدَ الفصيلُ عنِ الأمير كليب: "يقول كليب قاهر الأعادي \ كلاماً أشدّ مِنْ ضرب الهنادِ \ فلستُ براجع عنْ قطع رأسك \ ولو ملّكتَني كلّ البوادي". وضربَه بالسيف فتلقّى الصوصُ الضربةَ بالدرقة فنزلتْ على رقبة الجواد فقطعتْها. خافَ الصوصُ واستجارَ فأُجير وأُطلق سراحه. ومِنْ دون دعوة برزَ الفهد صاحب المكرِ والكيد وصدَمَ الفصيلَ صدمةً جبّارةً ردّتْه إلى الوراء، وسحبَ الفصيلُ الدبّوسَ وضربَ الفهدَ فأصابَ رأسَه وطيّرَ أضراسَه وأوقعَه على الأرض،

وأسرعَ قومُه وخلّصوه. وبرزَ الضبع وصالَ وجالَ ولعبَ برمحِه العسّال وحيّرَ عقولَ الرجال وطلبَ مبارزة الدجّال. وتجادلا بالسيف والترس حتى ضربَه الضبع ضربةَ جبّار بالفأس على أمِّ رأسِه فوقعَ على الأرض مع جوادِه أربع قطع. جنّ الشيطانُ لمّا رأى ما حلّ بأخيه الدجّال. أرادَ أنْ ينتقم. صدَم الضبعَ صدمةً قويّة. التقاه الضبع بصدمة أقوى. وتجادلا وتضاربا. رجحَت كفّة الضبع، وخافَ الشيطان وانسحبَ مِنَ الميدان بخفّةِ الغزلان. وصارت الفرسان تنزل إلى الضبع وهو يجندلهم في الحربِ والطعان حتى برز الضفدع وطلب مبارزة القدّ وقالَ: "مَنْ صنعَ نفسَه هو عصاميّ". قال القدّ: "ومَنْ نسبه إلى عظام هو عظاميّ". انتفخَ الضفدعُ وقال: "استأنسَ الحمارُ للمذلّة والهوان وأدركَه الذبابُ واستخراه والتصقَ به التصاق الغراء بالشَعر ولم يعد يفارق لا بطنه ولا ظهره ولا وجهه ولا عنقه ولا قفاه". قالَ القدّ وهو ينشب على أخمصيه: "أخافَ سخاءُ الشمس أشراراً تحالفوا مع الليل واقتحموا بكلّ الخِسّة والنذالة قبائل وشعوباً ومحوها عن وجه الأرض". وهجمَ على الضفدع، واحتارتْ مِنْ قتالِهما عساكرُ الفريقين. أخيراً يئسَ القدّ مِنْ تحقيق النصر. قالَ: "أريدُ أن ألقي سلاحي فهل تعطيني الأمان"؟. قال: "هو لك". وبرزَ ابنُ آوى شاهراً سيفَه الصمصام. كافحَه الضفدع وأتعبَه وضربَه بالسيف ضربةً صائبةً جزَّ بها عنقَه. وبرزَ الفرقدُ وبرزَ سهيل مناجزاً بكلامٍ كالدرّ النضيد عن لسان الفارس

الصنديد والبطل العنيد الزير سالم قائلاً: "كليب لا خيرَ في الدنيا وما فيها \ إنْ أنتَ خلّيتَها مَنْ يبقى واليها \ أضحتْ منازل بالخلاّن قد درستْ \ تبكي كليباً نهاراً مع لياليها \ غدرَكَ جسّاس يا عزّي ويا سندي \ وليس جسّاس مَنْ يحتسب تواليها \ لا أصلحَ الله هَناء مَنْ يصالحهم \ حتى يصالح ذئبُ المعز راعيها \ وتحلب الشاةُ مِنْ أسنانها لبناً \ وتسرع النوقُ لا ترعى مراعيها". ولمّا فرغَ مِنْ نظامِه وفهمَ الفرقد قصدَه ومرامه قالَ: "بلاءُ الإنسان مِنَ اللسان، ولا يفعل بالحديد إلاّ المبرد". وبرّقَ بعينيه! (وسّعَهما). فقالَ له سهيل وقد احمرّت عينه عليه: "برِّقْ لمنْ لا يعرفك! (هدِّدْ مَنْ لا يعرفك، فمَنْ يعرفك لا يعبأ بك). قالَ الفرقد: "إذا جرى الحصان حسرتْ عنه الحُمُر! (أي عجزتْ دونه الحمير). قالَ سهيل: "صمْتُ الجاهلِ ستره". قالَ الفرقدُ: "كلٌّ يحصد ما زرع ويُجزى بما صنع". وهجمَ على خصمِه ليستلَّ روحَه مِنْ قلبِه. وظلاّ في حربٍ وقتالٍ وكفاحٍ وهذا ينحذف كأنّه الأسد المغوار وذاك يثني عليه بالرمح بعياقتِه حتى انكسر سيفُ سهيل فصاحَ به الفرقد وضربَه بسيفِه فشقَّه نصفين وأوقعه على الأرضِ قطعتين. وبرزَ الغرابُ وطلبَ الثعبانَ فأجابه وسألَه: "مَنْ أنتَ أيّها العبد"؟. قالَ الغراب وقد أظلمَ أكثر: "أنا الغراب ومرادي أن أقطع رأسَك بهذا السيف". وتقاتلا حتى خرجتْ منهما ضربتان، أمّا ضربة الثعبان فأبطلَها الغراب بطارقةِ البولاد، وأمّا ضربة الغراب فنزلتْ على الثعبان

وجرحتْه وأدركَه أولادُه بسرعة وحملوه إلى الصيوان. وكَرّ الكرُّ على الغراب وقَوِيَ عليه وضايقَه ولاصقَه وسدَّ عليه طرقه وضربه بالبتّار فجرحه جرحاً بليغاً ألقاه على الأرض وقالَ له بعدَ زفير وشهيق: "قمْ واسرعْ داوي جرحَك وارسلْ غيرَك". وبرزَ الجحش. قوِيَ عليه الكرّ وقطعَ رأسه. وبرزَ البغل الذي سرعان ما انجرح واستجار فأُجير. ولم تزل الفرسان تنزل إلى الكرّ فيصرعها على الثرى إلى أنْ قتلَ عشرة وجرحَ عشرين وأسرَ ثلاثين. ورأى حُمُرات فتكَ الكرّ بأخيارِ قومِه، فجنّ جنونه وأمرَ بالهجوم. وهجمتِ العساكرُ على بعضِها وظهرَ الشجاعُ وبان وحمي الوطيس حتى الرؤوس طائرة والخيل شاردة إلى المساء حين افترقوا.

وصباحاً برزَ وحيدُ القرن بعدما اصطفّ الفريقان، فبرزَ له الفأر. قالَ له وحيدُ القرن وهو على أصيلة سرجها مِنْ جلْدِ سبعٍ مطرّزٍ بالذهبِ الإبريز: "إرجعْ إلى أهلك قبل أنْ تهلك". قالَ له الفأرُ: "خسئتَ أيّها النذل". انحمقَ وحيدُ القرن وقالَ بلسان الأمير غانم: "يقول الفتى غانم استمعْ \ أنا مفرّج الكروب بين العرايب \ وأنتَ صغير السنّ ما أنت قدّنا \ فتبرز لأصحاب اللحا والشوارب". قالَ له الفأرُ بلسانِ البطل الجرو: "تُعيّرُني في صِغر سِنّي جهالة \ فإنْ جرّبتَني لقيت الصعايب \ ومَنْ لا يشتري روحَه بروحٍ بدالها \ يكون بينَ الناس جباناً وعايب \ لسانُك حصانُك تصونُه يصونُك \ وإن خنتَه رماكَ بأكبر مصايب".

والتحما في الحربِ والقتال. ولم يثبتْ وحيدُ القرن وفرّ هارباً. وبرزَ الفيل. قاتلَ قليلاً وولّى هارباً. وصارتِ الفرسان تنزل، ومنها مَنْ يهرب ومنها مَنْ يُقتل. وبلغ عددُ القتلى مِنْ دون الجرحى والهاربين مئة صميدع. وأعلنَ حُمُرات وفرائصُه ترتعد أنَّ مَنْ يقتل الفأرَ سيزوّجه بنتاً مِنْ بناته. وطمعَ النَسرُ وصدمَ الفأرَ صدمةً قويّة، وجرى بينهما قتالٌ شديد، وضربَ النسرُ بالرمحِ فنزلَ الفأرُ تحت بطنِ الجواد، وأثنى النسرُ بالسيف فأخذه الفأرُ بترسِ البولاد، وثلّثَ بالدبّوس فما نال منه مرادَه. وعند ذلك أغارَ عليه الفأرُ وطعنَه بعودِ الزان فجاءتِ الطعنةُ في فخذِه وثنّى عليه بالسيف فقطعَ رأسَه.

وانطلقَ الطبلُ الرجّوج، واهتزّتِ السهولُ والمروج، والتقتِ الأبطال بالأبطال، وجرى الدمّ وسال، وزادتِ الأهوال، وطارتِ الرؤوس عنِ الأبدان، وتغلّبَ أحمِرة على حُمُرات. وصاح حُمُرات بقومه: "احملوا عليهم حملةً واحدة". ومالوا على قوم أحمِرة ميلةً واحدة. وزادتِ الأهوال، وقصرتِ الآجال، وماتوا بالملايين، وصاحَ أحمِرة بقومِه: "اثبتوا ولا تتراجعوا". وطارتِ الرؤوس، وزُهقتِ النفوس، ولم يزل السيفُ يعمل والرجال تُقتَل حتى ولّى النهار وأقبلَ الليل ودقّتْ طبولُ الإنفصال.

وافتقدَ أحمِرةُ جيشَه فإذا الباقي خمسمئة، وافتقدَ حُمُرات جيشَه فإذا الباقي ألف. وفجراً نهضَ أحمِرة ومَنْ بقي معه يفتّشون عنْ محلٍّ آمِنٍ

يتحصّنونَ فيه فرأوا مكاناً بين الصخورِ والتلال، وطلبَهم حُمُرات صباحاً تجديداً للقتال فلم يعثر على أحد فتقدّمَ هو وجيشه فما رأوا إلاّ والنبال كما في القصّة تشكّ في أجسامِهم وخيولِهم وتأتيهم مِنْ بين الصخورِ والتلال.

وتجدّدَ الكفاح بضربِ السلاح، وفتكوا ببعضهم فتْك البواشق بالعصافير أو فتك الذئاب بالحملان، ولم يبقَ حيّاً مِنْ جيش أحمِرة إلاّه ولم يبقَ حيّاً مِنْ جيش حُمُرات سواه. وتناجزا بالنشنشة! (لسان المقلي) والزمجرة! (لسان الأسد) والقصف! (لسان الرعد). وقال أحمِرة عن دياب الفتى الزغبي: "يقولُ الفتى الزغبي دياب الماجد \ ونيران قلبي زايدات اللهايب \ أيا ذا الوحش لو تعلم بهمّتي \ لتغذي على الأعقاب في البرِّ هارب \ أنا فارس البيدا حقيق مجرّب \ ولا أنا مِن سطوتِك بهايب \ هذا اليوم لأدعيكَ مجندلاً \ وتجري دماكَ على الثرى سكايب". قالَ حُمُرات عن العقيلي الفارس المغوار: "يقولُ العقيلي والعقيلي حنظلْ \ لا خير في فتى يعيش ذليلْ \ ولا خير في سلطان يأمنُ عدوَّه \ فذاكَ عقلُه ناقص وقليلْ \ نعم أيّها الغادي على متنِ ضامر \ يشابه الريم بالفلا جفيلْ \ تعالَ إلى الميدان أيا سلاّمه \ لخلّي دماك على الثرى يسيلْ". ولبطَ أحمِرةُ بالطول والعرض وقال: "كلُّ رأسٍ به صداع". وعملَ حُمُرات مثله وقال: "رُبّ رأس حصيد لسان". وقالَ أحمِرة ساخراً: "تحفظ أخاك إلاّ مِنْ نفسِه والحقُّ مغضبة! (يُقال للرجل

تصدقه عنِ الأمر فيغضب). وقالَ حُمُرات ساخراً أيضاً: "بقبقة في زقزقة"! (والبقبقة: كثرة الكلام والعجن، والزقزقة: أي الضحك. والمثل يُضرَب للمفتخِر بما ليس عنده). وقالَ أحمِرة بحنَق: "هل تلد الذئبةُ إلاّ ذئباً"؟. وقال حُمُرات بحنَق أيضاً: "آخر الداءِ الكيّ". وقالَ أحمِرة يائساً: "جنَتْ على أهلِها براقش! (وفي هذا المثل أنّ قوماً كانوا هاربين مِنْ وجهِ أعداء لهم وكانت لهم كلبة يُقال لها براقش، فبينما هم يسيرون ليلاً نبحتْ وكان الأعداءُ بالقرب منهم يفتّشونَ عنهم فاهتدوا إليهم بنباحِ الكلبة وأوقعوا بهم فسارَ بها المثل). وقالَ حُمُرات يائساً مثله: "قطعتْ جُهيزةُ قولَ كلِّ خطيب! (وجُهيزة جارية دخلتْ على أعيانِ قوم يخطبون للمصالحة عنْ دمّ قتيل فقالتْ لهم: إنّ أهلَ القتيل ظفروا بالقاتل، فقالوا: قطعتْ.. وإلى آخره، فصارَ قولُهم مثلاً).

وهجمَ البطلان على بعضيهما كأنّهما جبلان وافترقا كأنّهما مركبان وحان عليهما الحين وغنّى فوق رأسيهما غرابُ البين، وقامَ حُمُرات في عزمِ الركاب وضربَ أحمِرة فمالَ عنِ الضربة واعتدل وضربَه بالدبّوس على رأسه. وبقي حُمُرات متماسكاً وشنّ هجوماً معاكساً. وظلاّ على افتراق والتحام بحملات متكرّرة تهدُّ الجبال الراسيات..

وانتهى الراوي قائلاً: وفيما الشمسُ تتسلّق سلّمَ السماء كانت عقول لا تزال تغرق في محيطات الرمل. لكم ضاجّتكم ولي ضاجّتي. أنا القاتل

المقتول والمقتول القاتل. وصلَ الحضيضُ إلى الحضيض. أجْرَمتُم، جرَّمتم وجَرَمتم اللحمَ عن العظم. انكتِموا.

Shawkimoselmani1957@gmail.com

(2003)

مصادر

* حكمة الشعوب _ من إعداد: يوسف فرج ق. ب (دار الريحاني).
* نوادر الظرفاء _ من إعداد: يوسف مروّة (دار الفكر العربي).
* سيرة بني هلال (دار الكتب الشعبيّة).
* قصّة الزير سالم (دار الكتب الشعبيّة).
* المنجد في اللغة والإعلام (دار المشرق _ بيروت).
* صحف ومجلاّت ورقيّة وألكترونيّة.
* موسوعة الفلكلور والأساطير . لشوقي عبد الحكيم (دار العودة).
* نظريّة التطوّر الداروينيّة. .
* قصّة عنترة بن شدّاد.
* التراث الشعبي . 1976 (دار الحريّة للطباعة).

الغلاف الخارجي

واحد ينهقُ والآخرُ يزعق، وفيما النهيقُ طبيعةٌ غرامها المَرَح فالزعيق صناعة غوايتها أزيز الرصاص وجعير الصواريخ والحقد والكراهية. واحد لا يعرفُ الكذب والآخر يقيمُ يوماً عيداً للكذب، وليس في قاموسِ الأوّل كلمة ثأر فيما الثاني يرفع أسمى الشِعر لحضرةِ الثأر وله فيه معلّقة مخطوطة بماء الذهب. أيّهما، ويدي على رؤوسكم، ألطف وأنظف وأشرف وأرقّ وأحنّ وأحسن وأجمل وأكمل؟.

(قبل الصفحة الأخيرة)

* **الشاعر وديع سعادة:** "إذْ يُضحكنا شوقي في بعض ما يقول فإنّه لا يفعل سوى أن يُبكينا على ذواتِنا ويجعل الحيوانات التي يجب أن نبكيها هي تبكينا".

* **الدكتور رغيد النحّاس:** "يبسط مسلماني نصوصَه وفق خطوط يصل كلٌّ منها ما بين نقطتين متناقضتين وخطوطه تتشابك في نسيج يأتي بعضُه مِنَ المحكية بأسلوب عصري وكأنها تحممتْ بفخامةِ التراث وتعطرتْ بسلاسةِ الحاضر وتحمل في معناها شحنة كهربائية تصعق".

* **الكاتب خليل الجيزاوي:** "تُشكِّل الأسطورة روح المقاومة الشعبية ويلعب المخيال الشعبي في نسيج خيوطها كي تعيش في وجدان الناس. وتبقى الحكاية ضمن السياق، ولذلك اختارَ شوقي مسلمانى العودة إلى السِيَر الشعبية: "تغريبة بني هلال"، "الزير سالم"، "عنترة"، وغيرها، وراح ينسج هموماً وأحزاناً بخيوط هموم وأحزان وانكسارات كثيرة تكشف عن الحقيقة التي تناثرت هنا وهناك أشلاءً، وكيف اختلط الحقّ مع الباطل وتاهت معالم الطريق".

* **الأديب سليمان الفهد:** "قصص ترمز إلى الواقع بقالب قلّما نعهده في الكتابات المعاصِرة".

* **الدكتور مفيد مسّوح:** "حكايات في عوالم التكوين والكائنات والحكمة، شمول وسلاسة، تصنع صورة مِنْ كلّ حركة، في صياغتها الرسّام والشاعر، وجهد كبير فوق مستوى قارئ عابر".

* **الفنّان مدحت خليل**": كتاب أحمِرة وحُمُرات، وبكلّ صراحة، هو كتاب إدانة للإنسان بعامّة منذ كان وإلى اليوم، فمهما يبدو عاقلاً حكيماً هو سرعان ما ينكشف جوهره عند أوّل مفترق طرق، وينطق بالحقّ ويفعل الباطل، ويعيّن المشكلة ويخوض بالدمّ من أجل حلّها، ولا يزيد الأمور حقّاً إلاّ تعقيداً. وما سبق هو ثيمة هذا العمل الغريب وغير المألوف والجميل.